معنى الحياة

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

وبعد :

أيها الأخ المسلم :

مامعنى الحياة ؟

إذا سألت نفسك هذا السؤال فأنت إنسان عاقل مفكر. لأن الحياة تريد منّا أن نعرفها، وأن نبحث عن سرّها وغاياتها.

الذين يعيشون كثيرون - كثيرون جدا - هم كل الناس منذ وجدت الحياة إلى أن يشاء الله، وهم كل ما على ظهر الأرض من حيوان ناطق أو غير ناطق.

لكن الذين يبحثون عن معنى الحياة قلة - والذين يعرفون المعنى الصحيح أقل من القلة. ماذا نريد من الحياة؟ وما الغاية من وجودنا فى هذا الكون؟

بعض الناس يريدون الأكل والشرب، ويبحثون عن المتاع الحسّى، ويظنون أنهم إذا وصلوا إلى درجة رفيعة من الترف والنعيم فقد حققوا كل ما يريده الإنسان.

وبعض الناس يظنون أن الحياة منصب كبير، أو جاه عريض، أو شهرة واسعة، أو منزلة عالية - ويمضون فى الدنيا راضين عن أنفسهم، مخدوعين خادعين بما وصلوا إليه - وقد يعرفون فى آخر الأمر أنهم كانوا واهمين، وأنهم لم يستفيدوا ولم يُفيدوا - ولم يزد الواحد منهم على أن يكون فقاعة من هواء انتفخت ثم طارت فى الفضاء، ثم انفجرت وتناثرت - ويومئذ قد يدركون أنهم لم يعرفوا معنى الحياة.

وبعض الناس يعتقدون أن الحياة شباب وصحة وفتوة - فإذا ما تطاول العمر ضاع الشباب، وذهبت الصحة، ورحلت الفتوة، وأدركوا بعد فوات الأوان أنهم لم يعرفوا معنى الحياة.

هكذا يتصورُ بعضُ الناس الحياة - وتصورهم غير صحيح.

إن الحياة الصحيحة كامنةٌ فى وجودنا وفى أعمارنا، وفى أعمالنا وآثارنا.

- الحياةُ الصحيحةُ هى عمرُنا - هى كل لحظة من اللحظات التى نقضيها على هذه الأرض، هى كل نبضة دم تنبض فى عروقنا، كل فكرة تلوح فى أذهاننا - كل صرخة ألم تصدر عن إحساس، كل هزّة فرح أو نشوةِ سرور ترجُّ الأعماق.

- الحياة الصحيحة هى العمل والحَركة، والنموّ والطاقة، والأمان والحرية : وهى فوق ذلك كله شعورنا بذلك كلّه - شعورنا بأننا نعمل وننتج، وبأننا نتحرك وننمو ونبذل الطاقة، ونتمتع بالأمان وبالحرية - هى شعورنا بذاتنا وبعمرنا وبأيامنا.

شعورنا بأننا أحياء - نستمتع بالحياة، نمارس الحياة، نعيش الحياة، وليس المراد أن نستمتع بذلك حسيًّا - بل المراد أن نستمتع به عقليا وفكريا من ناحية، وروحيا وحسيا من ناحية أخرى.

إن الذى يشعر بأنه يعمل ويتحرك فينفع نفسه وينفع الناس، ويتذوق أثر هذه المنفعة هو الذى يعرف معنى الحياة - ولهذا يكون دائما حريصا على أن يستفيد من كل لحظة، وعلى أن يفيد غيره فى كل برهة.

وليس يكفى مجرد الشعور والإحساس - ولا مجرد الحرص على العمل والفائدة - بل لابُدَّ من وجود القدرة على ممارسة الحياة، والتّغلب على ما فيها من مصاعب ومشكلات. فإذا ما شعر المرء بحياته وبعمله فيها، وشعر بقدرته على هَذا العمل، وبتحقيقه لما أراد، وجد فى نفسه شيئا جديدا هو (الإحساس بالرضا).

والإحساس بالرضا معنى كبير للحياة لايدركه إلا الناجحون من المصلحين ورواد الفكر والعمل. وهو معنى لا يعطى الإنسان فرصةً للراحة، بل يحمّله المشاق والمتاعب : وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام.

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى - ولم أطلب - قليلا من المال.

- ويزداد الشعور بالرضا كلما كانت المنفعة أعم، وكلما أتسعت الفائدة فشملت الجماعة البشرية كلَّها. ومن هنا كانت عظمة المصلحين، وكانت من فوقها عظمة الأنبياء والمرسلين.

والشعور بالحياة، لا يتحقق إلا إذا كان للإنسان، أهداف متعددة - بعضُها يتبع بعضا

- أهداف متدرجة يحققها الإنسان بالعمل مرحلةً بعد مرحلة، وكلما حقق هدفًا شعر بكيانه وبحياته، وعرف أنها حياة مثمرة.

والحياة المثمرة كالشجرة الطيبة - تورق ، وتثمر، وتؤتى أُكُلَها جَنِيًّا شهيا لكل من عاش فى ظلالها من أهل أو صديق أو حتى عدّو.

والشعور بالحياة واسع متنوع : فهو شعور فكرى ذهنى يدرك حقيَقَتهُ العقل - والذين يعرفون هذا المعنى للحياة يدركون أنها قبل كل شىء حبُ وخير. حبّ للعمل وللنفس وللناس.

وخير للذات وللجماعة البشرية.

فعش دائما فى ظلال الحب والخير، تكن دائما عند المعنى الصحيح للحياة.

والله الهادى إلى سواء السبيل

obeikandl.com

مثل الحياة الدنيا

الحمد لله

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله عليه أزكى الصلوات وأتم التسليم.

وبعد ..

فقد ضرب القرآن الكريم مثلا عجيبا للحياة الدنيا - وهو مثل يبيّن بدايتَها ونهايتها. ويصوّر ما بين البداية والنهاية من تقابل وتناقض - وأمثالُ القرآن الكريم هي الحكمة، وهى العظة والعبرة - ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ سورة الحشر آية ٢١.

مثل ضربه الله للحياة حين تُقبل على أصحابها خَضِرة حلوة - فيها لعب ولهو وزينة، وفيها تفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد، وفيها ظل ظليل، وخير كثير - حتى إذا بلغت غايتها، واستكملت زينتها، وظن عُبَّادها أنها دانت لهم ودامت، جاءها أمر الله فإذا هى هشيم تذروه الرياح - وصدق الله :

﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها - أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ سورة يونس آية ٢٤.

ونظرة متأملة فى هذه الآية ترينا بعض الحقائق:

أول الحقائق : أن هذا المثل ضُرب للعظة والعبرة كشأن الأمثال الأخرى فى القرآن العظيم، ومصداق هذا قوله تعالى فى آخر الآية ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾سورة يونس آية ٢٤

ويؤكد هذه الحقيقة أن القرآن كرر هذا المثل، وساق الحديث إلى الناس مباشرة فقال مخاطبا لهم فى سورة الحديد : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ - وحين وجه القرآن الخطاب للرسول ﷺ فى سورة الكهف طلب إليه أن يوضّح المثل للناس فقال : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ سورة الكهف آية ٤٥ - أى واضرب يا محمد للناس مثل الحياة الدنيا.

وثانى الحقائق : أن الغاية من ذكر هذا المثل - مع العظة والعبرة - هى بيان قدرة

الله. وإنما تتضح حقيقة القدرة الإلهية حين تبرز على غير انتظار - وحين تأتى فى وقت يظن فيه الناس أن الدنيا قد اكتملت - وصارت فى قبضة أيديهم - عندما يكون تصور الفناء بعيدا تقول القدرة الإلهية : لا - أنا فوق كل شىء ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ سورة يونس ٢٤ - إنما هو أمر - مجرد أمر يأتى فى الليل أو يأتى فى النهار فإذا بالحياة وقد خضعت - وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وتتضح حقيقة القدرة الإلهية فى آخر آية الكهف ﴿ **وكان الله على كل شىء مقتدرا** ﴾ سورة الكهف آية ٤٥ - هكذا «على كل شىء» على الإنشاء والإفناء - على الابتداء والانتهاء - على الدنيا حين تأتى. وعلى الدنيا حين تذهب. على من يغترُّ بنفسه، ويغتر بالدنيا، وينسى سنة الله فى كونه :

لكل شىء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسان

وثالث الحقائق : أن الناسَ أمام الدنيا رجلان :

رجل أقبل عليها فاستعبدته، وملكته، وشغلته عن دينه ومصيره.

ورجل علم أنها مجرد متاع. فأعرض عنها، واكتفى بنصيب من حلالها - ورحم الله عليا بن أبى طالب حين قال : «يادنيا - إليك عَنِّى - غُرى غيرى - أإلّى تعرضّت؟ أم إلىّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات، لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها - آهٍ من قلة الزاد - وبُعْد الشُّقة، ووحشة الطريق».

ولقد وضحت آية الحديد عاقبة الرجلين - قال تعالى : ﴿ **كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يكون حطاما - وفى الآخرة عذاب شديد - ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ - أما العذاب فلعبد الدنيا - وأما المغفرة والرضوان فلمن اكتفى بحلالها - واستوعب قول ربه ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ .

وبعد ..

فما أكثر الأمثلة - وما أبلغ الأدلة - ولكن ما أقل القلوب الواعية. إن القرآن يسوق الأمثلة ليقرب المعنى من الذهن - وليوضح الحقيقة للفهم - وليجعل الأمور المعنوية محسوسة ملموسة تخاطب العقل - وتقرع السمع، وتملأ القلب - حتى لا يكون للناس على الله حجة - فهل من مدّكر؟

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الحياة الطيبة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

وبعد

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾سورة النحل آية ٩٧.

والحياة الطيبة رجاء كل نفس، ورغبة كل فرد، وغاية يسعى إليها الإنسان منذ وُجد وكان.

والرغبة فى الحياة الطيبة أمر مشروع، لا يتعارض مع الدين ومُثُله، ولا يتنافى مع طبيعة العبادة أو لذة الطاعة - والسعى إلى الحياة الطيبة يلتقى مع جوهر الرسالة المحمدية الكاملة، بل هو هدف أساسى من أهداف هذه الرسالة إذا نحن فهمنا «الحياة الطيبة» على معناها الصحيح - فليس من هدف الدين أن يعيش أتباعه محرومين بائسين، وليس من غاية السماء أن يتعذب أهل الأرض، وليس الشقاء فى الدنيا هو السبيل إلى السعادة فى الآخرة - وما أجمل أن يجمع المؤمن بين نعيمى الدنيا والآخرة - يعمل للدنيا كأنه مخلد فيها، ويعمل للآخرة كأنه على موعد معها فى الغد القريب.

غير أن مفهوم «الحياة الطيبة» يختلف فى الأذهان، ويحتاج منا إلى شىء من بيان :

بعض الناس يتصورون «الحياة الطيبة» فى الترف والنعيم، ويربطون فى خيالهم بينها وبين الرياش الوثير والفراش الناعم، والقصور المنيفة والسيارات الفاخرة - يتصورون السعادة فى وفرة المال وكثرة العيال، وعز الجاه وسطوة السلطان. وما نحب أن ننفى ذلك، ولا نحب أن نقول إنه يتعارض مع الفكر والعقل والدين والواقع.

وإنما نقول : إنه ليس حتما أن يكون الإنسان غنيا مترفا حتى يكون طيّب الحياة راضى العيشة. قد توجد الحياة الطيبة مع الجاه والمال - وقد توجد الحياة الطيبة بدون الجاه والمال - ولا ارتباط بين الأمرين.

الحياة الطيبة : فكرة ومعنى - طمأنينة ويقين - سلام مع النفس كلما طلع صباح أو حلّ مساء.

الحياة الطيبة : تنبع من القلب - من الداخل - مصدرها فى وجدان الإنسان - فى صلته بالله، فى يقينه وعقيدته.

الحياة الطيبة : إيمان بالله، وإسلام القلب لقضائه وقدره، والرضا بالنصيب فى غير خضوع أو خنوع أو ذلة أو هوان، والحياة الطيبة : عمل صالح كامل.

الحياة الطيبة : صلة هنية فى بيت سعيد يجمع الزوج الوفية والولد الرشيد - يخرج الإنسان منه فى الصباح إلى عمله، فيؤديه فى أمانة وإخلاص، ويقضى يومه بين الناس مهذب اللفظ، حلو المعشر، عف اللسان - ثم يعود إلى بيته فيجد الأنس والأمن والطمأنينة - وهو فى كل خُطواته وثيق الصلة بربه - دائم التفكير فى نعمه، حريص على التسبيح بحمده والتقديس لجلاله .

هذا هو المفهوم السليم للحياة الطيبة.

ونعود إلى الآية الكريمة فنجدها قد رسمت الطريق للحياة الطيبة - ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة**﴾ سورة النحل آية ٩٧ - فالحياة الطيبة تقوم على قاعدتين :

إيمان بالله بكل ما فى الإيمان من صدق وحق ويقين.

وعلم صالح يُبرز جوهر الإيمان ويحوله إلى سلوك حميد بين الناس.

وإذن - فالإيمان وحده لا يكفى، والعمل وحده لا يكفى.

إذَا وقف المؤمن عند مجرد العقيدة ولم يعمل كان ناقص الإيمان.

وإذَا عمل الكافر عملاً صالحا لا ينبعث عن عقيدة صحيحة كان عمله سرابا يظن فيه الخير حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

والمطلوب : إيمان بالله، وعمل صالح صادق - وبهما معاً يتحقق للإنسان مايريد من حياة طيبة هانئة راضية.

فإذا كانت الآية الكريمة قد وضعت للحياة الطيبة قاعدتين هما **الإيمان والعمل** - فإن عدل الله جعل الجزاء يمتد إلى الحياتين - الحياة الدنيا والحياة الأخرى فيصبح جزاءين.

obeikandl.com

وهكذا يتحقق العدل الإلهى فى أكمل صوره :

يطلب منا أمرين : **الإيمان - والعمل**

ويعطينا جزاءين : حياة طيبة فى الدنيا، وأجرا حسنا فى الأخرى.

وصـــــدق الله : ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾سورة النحل آية ٩٧.

ونسأل الله العفو فى الدنيا والآخرة.

obeikandl.com

الكلمة الطيبة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا لعبادته وإعمار الكون بشرعه وفطرنا على الحق وأشهدنا على أنفسنا أنه الحق.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا رسول الله فتح الله به قلوبا غلفا وآذانا صماً وأعينا عميا وربى جيلا ربانيا فتح الدنيا كلها بنور العقيدة وصفاء العبادة ومحاسن الأخلاق فاللهم اجزه عنا وعن والدينا وعن الإسلام والمسلمين خير ما جزيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته.

أما بعد ..

فيا عباد الله....

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا ، كلمة طيبة كشجرة طيبة - أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ سورة إبراهيم آيات ٢٤:٢٥.

هذا مثل ضربه الله تعالى، وكم فى القرآن من أمثال ، ﴿ **إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها - فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم - وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦.

أما مثل اليوم فمثل طيب، فيه الحق الذى أراده الله لعلّ الناس يتذكرون وينتفعون.

الكلمة الطيبة - طيبة فى مصدرها ومنبعها - طيبة فى غايتها وهدفها، طيبة فى ثوابها وجزائها، طيبة فى حروفها ونسيجها - طيبة فيما يحيط بها من جوّ كأنما هى مسك من عطر الجنة - ينفح بالطهر، ويثمر بالخير، وينضح بالصدق والحق - ويجمع الناس على المحبة والصفاء.

الكلمة الطيبة - نبات ذكى - يَنْبُتُ فى تربة صالحة، ويُسقى بماء طاهر، أصله ثابت وفرعه فى السماء.

الكلمة الطيبة :

هى كلمة (الإيمان) تملأ قلبك باليقين والتوحيد والتنزيه كلما تأمّلتَ صنع الله.

وهى كلمة (الحق) تقولها فى موطن الشدة لا تبالى فى الله لومة لائم، ولا تخشى فى هذا الحق جبروت ظالم، ولا عدوان معتد غاشم.

هى كلمة (التوفيق والإصلاح) تقولها بين المتخاصمين فتمنع الشر، وتُلِين القسوة، وتزُيل الجفوة، وتجعل العدوّ كأنه ولىّ حميم.

وهى (شهادة الصدق) تقولها فى حقٍّ مظلوم فترفع عنه الغُمّة، وتكشف البلوى.

وهى كلمة (الشكر) تقولها لوالد ربّاك ورعاك، أو أستاذ علمك وأرشدك، أو صديق منحك من وُدّه وأخوته ما ينفع ويبقى.

هى (تحية الصباح أو المساء) تلقيها على من تعرف ومن لا تعرف من إخوتك فى الدين، فتحقق معنى الأخوة، وتمكن لروابط الدين.

وهى (قول المعروف) تردُّ به سائلا متمثلا لقول الله ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنى حليم**﴾ سورة البقرة آية ٢٦٣.

الكلمة الطيبة : هى كل كلمة خير تقولها فى موضعها فتثمر الخير - قد تكون صغيرة بسيطة لكنها عميقة الأثر بعيدة المدى، وقد تكون رقيقة رفيقة لكنها تفعل ما يفعله الدواء الشافى حين يزيل الداء القاتل.

الكلمة الطيبة : هى الحسنةُ تدفع بها السيئة - والسماحة تردّ بها الوقاحة - والصفاءُ تقابل به الجفاء - والحكمة تستعملها فى مواطن المحنة. ﴿**ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾سورة فصلت آية ٣٤:٣٥ - قال ابن عباس : الكلمة الطيبة هى شهادة أن لا إله إلا الله، وأصل هذه الشهادة ثابت فى قلب المؤمن كما تثبت الشجرة بجذورها فى الأرض - وفرع الشهادة هو (العمل الصالح) يعمله المؤمن فيرتفع إلى السماء.

ويرى بعض العلماء أن الكلمة الطيبة هى كلماتٌ تقال عقب كل صلاة، ويستدلون بما

رواه قتادةُ أن رجلا قال : «يارسول الله - ذهب أهل الدثور بالأجور - فقال : أرأيت لو عُمِد إلى متاع الدنيا فرُكِّب بعضُه على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء؟ قال : ما هو يارسول الله؟ قال تقول : «لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله» عشر مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الأرض، وفرعه فى السماء» صدق رسول الله.

أما الشجرة الطيبة - فقيل هى كل شجرة مثمرة - وقيل هى النخلة.

روى البخارى عن ابن عمر قال : «كنا عند رسول الله ﷺ فقال : أخبرونى عن شجرة تشبه الرجل المسلم : لا يتحاتُ ورقُها صيفا ولا شتاء، وتؤتى أكُلَها كلَّ حين بإذن ربها - قال ابن عمر : فوقع فى نفسى أنها «النخلة» ورأيتُ أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهتُ أن أتكلم - فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله ﷺ «هى النخلة» فلما قمنا قلتُ لعمر : ياأبتاه، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة - قال : ما منعك أن تتكلم؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهتُ أن أتكلم أو أقولَ شيئا - قال عمر : لأن تكون قلتَها أحبُّ إلى من كذا وكذا..»

ولا تناقص ولا تعارض فى شىء مما قيل :

فالكلمة الطيبة هى كل لفظة نقية، تناجى بها الله، أو تقيم بها حقا، أو تنصر مظلوما، أو تزيل ضغينة، أو تمنع شرا، أو تهدى حائرا، أو تثنى على مجيد، أو تشجع مترددا.

وهى ككل شجرة طيبة.

كلتاهما فيها خضرة ساجية ناعمة، وفيها ظل وارف ساكن - وفيها ثمر شهى، وطلع بهىّ وكلتاهما فيها طلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وصدق الله ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٥.

فاللهم إنا نسألك لسانا ذاكرا وقلبا خاشعا وبدنا على البلاء صابرا.

آمـــين

محمد فى ذكرى مولده

الحمد لله العلى العظيم الحليم الكريم الغفور الرحيم،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلها جل عن المثيل والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير وتقدس عن الوزير والمشير ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه، وحجته على عباده أرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون عليه .

أما بعد...

فهكذا تدور الأيام. وهكذا تتوالى الأعوام. وهكذا - نعود إلى ماضينا الغالى كلما أظلتنا الذكريات.

أهل هلال الربيع - وبدا فى استدارته الرقيقة قوسا من فضة، يرصّع جبين السماء، ثم زادت أضواؤه، وأشرق لألاؤه، وغدا بعد ليالٍ بدرا يملأ صفحة الكون الساجى.

منذ أربعة عشر قرنا أشرق هذا الهلال على الدنيا بعد أن ضلت السبيل، وحار بها الدليل، وضاع معنى الكرامة الإنسانية فى سوق العبودية.

أشرق هذا الهلال فكان بشيرا بمولد محمد ..

محمد الذى هدى الحائر، وأرشد الضال، ونصر المظلوم، وأعز الذليل. ويومها غنت الدنيا، وأعلنت فرحتها الكبرى :

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم زمان تبسم وثناء.

واليوم يشرق علينا الهلال من جديد - فيحيى ميت الأمل، ويجدد بالى العزم، ويرفع رؤوسنا إلى السماء لعلنا فى موكبه نرى البشرى تعود.

محمد : اسم حبيب : تردده ملايين الشفاه ، وتحفظه ملايين القلوب، وتهوى إليه الأفئدة كلما طلع الصباح أو حل المساء.

هو رسول الله - ولكنه فى عالم النبوة خاتم الأنبياء - كملت برسالته الرسالات، وتمت بكلمته الكلمات، وختمت بآيته الآيات. وانتهى بموته وحى السماء - ونزلت آخر آية تحمل المعنى الكبير ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾«سورة المائدة آيه ٣» وهو ابن عبدالله - إنسان من الناس - اختاره الله واجتباه ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى** ﴾«سورة الكهف آيه ١١٠». وتلك حكمة الله. اصطفاه ورعاه، وصنعه على عينه وأدبه ورباه. وجعل من هذا الإنسان كمالاً مطلقا فى كل مجالات الحياة، بل وفيما وراء الحياة.

وعجب الناس - كيف يكون الرسول بشرا منهم - وغابت عن العقول حكمة الخالق، حتى جاءت الكلمة الخالدة تبين الحكمة، وتوضح المنة، ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم** ﴾«سورة آل عمران آيه ١٦٤». وإنما يفهم الإنسان عن إنسان، ولو كان على الأرض ملائكة لبعث الله فيهم ملكا. ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ «سورة الإسراء آيه ٩٥». وسبحانك يارب قلت وقولك الحق. ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم - إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ سورة الإسراء آيه ٩٦». وعلى هذا جاء محمد : فغير الدنيا، وأقام نظاما من التوحيد والعدل والمساواة، لم يكن له مثيل من قبل، ولن يكون له مثيل من بعد - ومهما تصارعت الأفكار، وتحاربت المبادئ فسيظل الإسلام منارة مضيئة بالخير. ونظاما يكفل للإنسانية ما تريد . وفوق ما تريد. جاء محمد فكان المثل وكان الأسوة الحسنة :

كان أسوة فى صدقه وأمانته وعفته حتى لقب قبل بعثته بالصادق الأمين.

وكان أسوة فى أخلاقه وطباعه ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾سورة القلم آيه ٤».

وكان أسوة فى رفقه ولينه وسماحته ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾سورة آل عمران آيه ١٥٩».

وكان أسوة فى أبوته، وفى صداقته. وفى عشرته، ومعاملته لزوجاته، وفى حكمته وبلاغته.

وكان أسوة فى تربية أصحابه - وإعدادهم من بعده لمواقف الحياة. وصدق الله ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ سورة الأحزاب آيه ٢١».

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع هذه المثالية رحمة للأمة ﴿ **لقد جاءكم رسول من**

أنفسكم عزيز عليه ما عنتم. حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ سورة التوبة آيه ١٢٨.

جاء محمد : فغير المفاهيم - وحرر العقول، وطهر القلوب ، وهذب النفوس، وثبت فكرة التوحيد - وكون فى الأذهان أقوى أساس للمعرفة - وأظهر قاعدة للعبادة .

وبعد..

فما نريد أن يكون احتفالنا بالذكرى الغالية - كلاما يقال، أو حديثا يذاع، أو لحظات من التأمل والتجرد والتحسر.

بل نريد ميلادا جديدا : ميلادا لأفكارنا - ميلادا لأخلاقنا، ميلادا لمبادئنا ومثلنا. ميلاداً لحياة جديدة تعيش فيها أمة محمد على تعاليم محمد - وبهذا وحده يصدق الاحتفال بذكرى محمد.

محمد خاتم النبين

فشخصية الرسول العظيم محمد بن عبد الله - شخصية غنية بالمواهب، ثرية بالفضائل.

لقد تجمعت فيه كل صفات الكمال الإنسانى - فكان أهلاً للرسالة ﴿ **يأيها النبى، إنا أرسلناك شاهدا، ومبشرا، ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا** ﴾سورة الأحزاب الآيتان ٤٥، ٤٦». وكان أهلاً للقدوة ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ سورة الأحزاب آيه ٢١» - وكان أهلاً للثناء الإلهى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾سورة القلم آيه ٤».

وأروع ما فى شخصية محمد أمور ثلاثة :

بلوغ الكمال فى كل صفة وفضيلة - وتنوع شامل فى الصفات والفضائل - وتطابق صادق بين معرفة الفضيلة وبين السلوك فى حياة هذا الرسول العظيم.

وفى الجملة كان سلوكه فى كل مناحى الحياة وفقا لمراداة الله

وعهدنا بالعظماء أن ينفرد كل عظيم بصفة أو ميزة تعطيه معنى التفوق، وتضمن له صفحة فى سجل الخلود، فهذا عبقرى فى القيادة الحربية، وذاك نابغة فى الحكمة السياسية، أو المقدرة الإدارية، وثالث تجاوز حدود الطاقة فى اكتشاف أسرار الطبيعة وخبايا الكون، ورابع منحته الحياة شفافية وإلهاما فغنى للحياة وللناس أنغام الجمال، وهكذا تنوعت الميزات، ونال كل عظيم ميزته على تفاوت فى الحظوظ، واختلاف فى النتائج، وبُعْد أو قُرْب بين المعرفة والسلوك.

أما محمد - فآية الآيات فيه أن يكون قمة فى كل صفة، وأن يكون مركزاً تجمع فيه كل فضائل الحياة - وحقائق الخير على نحو يندر أن يتاح لإنسان، إلا أن تكون السماء قد أعدته لأمر عظيم.

ولقد يقال - إن السماء اختارت غيره من البشر فكانوا أنبياء، ورسلا، فهل منحتهم ما منحت محمدا من صفات وفضائل؟ والجواب : قطعا لا - فإن محمدا امتاز على الأنبياء - امتاز بالرسالة الشاملة، وبالكلمة الأخيرة، وبالمعجزة الباقية.

أما الرسالة الشاملة : فلأن كل رسول أرسل لقومه، أما محمد فقد أرسل إلى الناس كافة بل تجاوزت رسالته الإنس إلى الجن ﴿**قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا**﴾ سورة الجن الآيتان ١، ٢».

وأما الكلمة الأخيرة : فنعنى بها أن رسالة محمد هى الرسالة الأخيرة، وهى الدستور الباقى ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين**﴾ سورة الأحزاب آيه ٤٠» والختام غاية الشئ، والغاية هى التمام والكمال ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾سورة المائدة آيه ٣».

وفى البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا اللبنة - خُتِم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

وقال صلى الله عليه وسلم : «فُضِّلت على الأنبياء بست - أعطيتُ جوامع الكلم، ونصُرت بالرعب، وأُحلت لى الغنائم، وجُعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بى النبيون».

وروى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أنا محمد - وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى، وأنا العاقب - والعاقب - الذى ليس بعده نبى».

وأما المعجزة الباقية : فهى القرآن ، كانت سنة الله أن يؤيد الرسول بمعجزة حسية ، تنتهى بزمنها أما معجزة محمد فلا تزال بيننا إلى اليوم، وستبقى إلى الأبد - وحياً يهدى، ونورا يضئ، وكتاب صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من

حكيم حميد» ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾سورة الحجر آيه ٩».

والحكمة واضحة فى جمعه بين الرسالة الخاتمة، والمعجزة الباقية.

وتظهر عظمة محمد فى ميزان التقدير لأنه فتح القلوب قبل أن يفتح البلاد، وزود الإنسان بأطيب زاد، زوده بالإيمان والتقى، وزوده باليقين والرضا، وارتفع به فوق مراتب البشرية ليعيش فى رحاب الله.

قال واحد من رجال الفكر الغربى .

إن محمداً قد عرف عن الله حقيقة لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه فكرة نشر هذه الحقيقة بين الناس، وإنه لخليق بهذا أن يساوى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة. جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على ألوان من الأذى والحقد والحرمان، ولم يَلِنْ أمام وعد أو وعيد».

وربما اهتدى إلى فكرة التوحيد آخرون، لكن أحدا فى العالم لم يُقم مثل ما أقام محمد من إيمان مكين دائم بالوحدانية. ولم يتمكن محمد من إقامة هذا الدين المتين، إلا بالعمق فى إيمانه : والصدق فى دعوته».

وما ذكره هذا المفكر نموذج من صفات محمد التى جعلته مثالا فى : صدق العقيدة، وقوة الإرادة ، واتساع الأفق، وكمال المنهج، ورجاحة العقل، وسماحة النفس، وسلامه الفكرة ، واتساع القلب، حتى أصبح فتحه للبلاد فتح إيمان، يملك القلوب قبل أن يملك الأرض. وبمثل هذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل، وخاتم النبيين.

الجوانب الإنسانية فى حياة محمد

ولقد كانت حياة محمد صورة صادقة للكمال المطلق، امتازت بالمثالية والتنوع والغنى. وبرزت فى مجالات لا تخرج عن حدود الطاقة الإنسانية، لكنها لا ترتفع ، ولا تتنوع، ولا تتجمع، كما كانت فى هذا الإنسان العظيم.

ومن أعظم جوانب هذه الحياة - الجانب الإنسانى - ونعنى به الصفات التى تتصل بشخصيته كإنسان، صفات الأب والابن، والصديق والزوج، صفات الرجل حين يتعامل مع غيره فى شؤون الحياة الدنيا.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم : أصدق الناس فى صفاته الإنسانية، وكان أنبل الناس فى طباعه البشرية، وكان محمد الإنسان هو محمداً الرسول . على فرق ما بين

الرسول والإنسان، التقى فيه الجانبان، على قدَر من الله، فكان صفوة خلق الله.

ولد يتيما - وعاش فقيرا إلى عطف الأبوة، وإلى حياة الأسرة الآمنة فى كنف الأب ورعايته، وتجمعت فى كيانه كل عوامل الشوق البشرى، إلى أسرة متآلفة، وذرية صالحة، وعمر يمتد على امتداد الأحفاد بعد الأبناء.

لكن إرادة الله شاءت غير ما تمنى - فانطوى على نفسه، ومضى يضم القلب فى صمت على صبر وشجن - وفكر وتأمل ولم تسعده الحياة بالأبوة كما لم تسعده بالبنوة - فقد مات كل أبنائه فى حياته إلا فاطمة، بقيت له ريحانة من ريحان الجنة يشم عبيرها - وامتد شوقه إلى الولد عشرين عاما حتى ولد له إبراهيم وهو شيخ فى الستين - وكانت فرحته بهذا الوليد تعادل شوقه الصابر ستين عاما، لكن العزيز الصغير يموت قبل أن يورق الأمل فى قلب أبيه الشيخ، وينطوى القلب الكبير من جديد على مآلِف من حزن. وما كان محمد صلى الله عليه وسلم فى أعظم مواقفه الإنسانية، كما كان فى هذا اليوم الذى فقد فيه وليده إبراهيم.

هنا تقاس عظمة الإنسان، وهنا يعرف معدنه، وهنا تتجلى حقيقته، لقد صهرته نيران الحزن، وعصرت قلبه الفجيعة القاسية، ولكنه كان مثال الصبر والإيمان - مثال الرضا والاطمئنان، مثال القبول لإرادة الله، المصيبة كبيرة ولكن القلب أكبر، والامتحان شديد ولكن الإيمان أعمق.

حمل ابنه الغالى فى حجره، وجلس لحظات يودعه قبل أن يواريه التراب، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : «يا جبل. لو كان بك مثل ما بي لهدك - ولكن . إنا لله، وإنا إليه راجعون».

وتلوح الدموع فى عينى الإنسان العظيم، وينظر المسلمون إلى حبيبهم فيتعجب بعضهم من بكائه، ويصرخ بعضهم تألما لألمه - وفى يقين الصابر يقول : «وكأنه يعلِّم المتعجبين» - «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون، ولكن لا نقول إلا مايرضى الله». وفى حكمة المعلم يقول «وكأنه يعلّم الصارخين» - «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان» .

وتشاء إرادة الله أن تنكسف الشمس فى هذا اليوم الحزين، ويحسب المسلمون أنها انكسفت لموت إبراهيم، لكن محمداً الإنسان، هو محمد الرسول، وحرصه على عقيدة

أمته أعظم من أن يهتز فى ساعة من ساعات الألم فيقول : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته». وبهذا يرد على المؤمنين إيمانهم.

هذا هو الحزن كما ينبغى أن يكون. حزن فيه كل لوعة الفقد والحرمان، ولكن : فيه يقين الصابر، وصبر المؤمن، وإيمان الواثق، وثقة الإنسان فى أعلى مراتب الإنسان.

حزن فيه الحكمة والهداية والرشاد. حزن فيه ارتباط الإنسان العظيم بالرسول العظيم، وهكذا كان محمد.

وجانب الأبوة فيه لا ينفصل عن جانب النبوة، ولقد كان إنسانا فى نبوته كما كان إنسانا فى أبوته :

جلس وهو شيخ فى الستين على قبر أمه فبكى مر البكاء - بكى لأنه لم ينس هذه الغالية التى رافقها فى بداية الحياة ست سنوات، ثم تركته صغيرا وحيدا يمتص حزنه ودموعه فى صمت، ووفدت عليه حليمة السعدية وقد بلغ الأربعين فرق لها رقة حانية، وكرم فيها الأمومة لأنها كانت فى طفولته وصباه قد أرضعته الغذاء والحنان.

وعاش يعز الجارية الحبشية «أم أيمن» ويبشرها بالجنة ، ويناديها أمى أمى، ويسعى لها فى حياة زوجية مطمئنة جزاء ما منحته من ود فى صباه، وما أعطته من معنى الأمومة يوم كان فى حاجة إلى هذا العطاء.

فهذا هو محمد الإنسان - إنسان فى نبوته - إنسان فى أبوته.

وكم فى حياته من ينابيع للفضائل الإنسانية الكريمة.

وهذا جانب آخر من الجوانب الإنسانية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم - ونعنى به جانب الحياة الزوجية فى صفوها وغيمها، فى ما يعرض لها من وفاق وخلاف، وتقارب وتباعد، ونحن حين نعرض لهذا الجانب نكتفى بلمحات خاطفة ولكنها كافية لتؤكد ارتفاع المعانى الإنسانية فى حياة محمد.

● كان محمد إنسانا فى اختياره لزوجاته - وما اختار واحدة إلا فى ظلال المودة والإنسانية : .

- بالإنسانية والمودة اختار **(عائشة وحفصة)** ، وكلتاهما بنت صديق، فضم بالصهر إلى رحابه هذين الصديقين، بعد أن ضمهما بالعقيدة وتجاوب الأرواح - فكان مثالا فى تأليف الأصدقاء ورعايتهم.

- وبالإنسانية والمودة حفظ لـ **(سودة بنت زمعة)** كرامتها، بعد أن تركت الأهل والوطن فى سبيل دينها، ورحلت مع الزوج إلى الحبشة، وذاقت مرارة الغربة، ثم امتحنها القدر بفقد الزوج المهاجر، فاجتمع عليها مع الغربة وحشة الوحدة، وتعرضت للضياع والهوان، لولا هذا الإنسان الكبير محمد صلى الله عليه وسلم.

- وبالإنسانية والمودة حل مشكلة ابنة العمة **(زينب بنت جحش)**، بعد أن تعثرت حياتها الزوجية، وتعرض بيت إسلامى للانهيار، وتقدم الإنسان العظيم ليضرب المثل، ويشرع قانوناً يأبى أى عربى أن يكون هو موضع التجربة فيه إلا أن يكون على هذا المستوى الإنسانى الرفيع.

- وبالإنسانية والمودة اختار **(أم سلمة)** ليجبر خاطر مسلمة عجوز فقدت الزوج يوم أحد فى سبيل الدعوة واختار **(جورية بنت الحارث)** ليجبر خاطر عزيزة قوم ذلت فى الأسر.

- واختار **(رملة بنت أبى سفيان)** لأنها كانت غريبة مهجورة، تنصر زوجها فى الحبشة، وتركها للضياع والهوان.

هكذا اختار محمد زوجاته، تلبية لرقة إنسانية، أو نخوة عربية، أو نجدة كريم يأبى على المرأة المؤمنة أن تضيع وأن تهان - وهذا هو المعنى الإنسانى فى الاختيار.

● أما المعنى الإنسانى فى المعاملة فصورة رائعة من الرفق، تعددت مظاهرها وكثرت، وحسبنا هنا أن نشير إلى موقفين، يكفى واحد منهما ليثبت الحقيقة العظيمة فى حياة هذا الإنسان العظيم:

الأول : موقفه حين تقوّل المفترون على عائشة - ونسبوا إليها قصة الإفك، ومسوا جانبا من جوانب العزة لها فى حياة كل عربى أعمق تقدير.

لقد كان غيره فى مثل موقفه هذا جديرا بالثورة والنقمة والعنف - لكن محمدا الإنسان - كان جديرا بالأناة والروية. والحكمة والهدوء، وبالثقة والبحث عن البينة حتى جاءت كلمة السماء تعلن عن عائشة ما هى أهل له من عفة وشرف، فاستجاب طبع الإنسان فى محمد لما توجبه عليه السماء من طبع الرسول.

الموقف الثانى : موقفه حين شكت زوجاته من حياة الكفاف، وطلبن زيادة النفقة، وهى موفورة لديه لو أراد - لكنه لم يستطع أن يحقق لهن ما يردن من متعة العيش ولين الطعام،

فخيرهن بين الفراق بالمعروف، أو الإمساك على حياة الحرمان، وأمهلهن شهرا ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** ﴾«سورة الأحزاب الآيتان ٢٨، ٢٩».

فهو الفراق بمعروف أو الإمساك بمعروف - لا قوة ولا عنف- وإنما رقة إنسانية وسماحة رجل كريم وإنسان عظيم.

قد يكون حديثنا إلى الآن أمثلة إنسانية من حياة محمد الزوجية، وهى دليل عمل لأصحابه وأتباعه، لكن محمدا الإنسان يأبى أن يكتفى بذلك فهو يزيد الأمر إيضاحا بأقواله الجامعة .

استمع إليه وهو ينصح المسلمين بحسن معاملة نسائهم فيقول :

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا ، وخياركم خياركم لنسائهم».

واستمع إليه حين يأمر بمداراة ضعف المرأة فيجبر بإنسانيته ضعف الضعيف، ويخفف من شدة القوى.

«المرأة خلقت من ضلع - لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها - استمتعت بها، وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

ومحمد الزوج يلتقى مع القرآن الكريم كإنسان - كما يلتقى معه كرسول . والقرآن الكريم يقول : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾«سورة البقرة آيه ٢٢٨».

ويقول : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾«سورة النساء آيه ١٩» وكلمة (المعروف) التى تكررت فى الآيتين هى أوفى الكلمات دلالة على المعنى الإنسانى فى معاملة المرأة.

هذا هو محمد الإنسان - أقام بيته على دعائم من المودة والألفة، ومن التعاون والمحبة - ومن الطمأنينة والثقة، وجعل للمرأة شخصية إنسانية فعاشت فى رحاب الإسلام عزيزة كريمة مصونة.

ومن الجوانب الإنسانية فى حياة محمد صلوات الله وسلامه عليه جانب الصداقة. ولقد كان محمد صديقا مخلصا، وأخاً وفيا لكل من عاشره، واختلط به. وكان فى

صداقته مثالا ينبغى أن يدرس دراسة موضوعية، وكان نموذجا للوفاء والحب ينبغى تحليله تحليلا علميا .وحسبى أن أشير إلى بعض الخصائص التى ظهرت فى صداقته، أسوقها فى إيجاز وتركيز : كانت صداقته **(عامة شاملة)** تناولت الكبير والصغير والغنى والفقير، والأبيض والأسود، وكان أصدقاؤه مجموعة من الناس تباينت مشاربهم، وتعددت طباعهم، وجمعهم كلهم على الحب والوفاء، صادق الأفذاذ من الرجال كأبى بكر وعمر، وصادق الفقراء من العبيد كبلال وسلمان، فلم تختلف صداقته للسيد القرشى عن صداقته للعبد الحبشى.

واتسعت مودته حتى شملت الصغار من الصبيان، وروى عنه أنه «كان أرحم الناس بالصبيان والعيال).

وعن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبِّل الحسن فقال : «إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه من لا يَرْحَم لا يُرحم».

بل لقد بلغت مودته مداها حين تجاوزت الإنسان إلى الحيوان، وجعلت عطفه يشمل الجماد بعد الأحياء، فهو يحب قصعته التى يتناول فيها طعامه، ويسميها الغراء، وسيفه الذى يحارب به ويسميه ذا الفقار، وناقته التى يركبها ويسميها القصواء، هذه واحدة من صفات صداقته.

أما الثانية : فهى أن صداقة محمد كانت **«صداقة موصولة، ومودة دائمة»** صداقة لا ترتبط بزمن، ولا تتصل بهدف، إنما ينقطع الود إذا كان وليد غاية، أو نتيجة غرض، وإنما يدوم الوداد إذا اتصل بالعاطفة الإنسانية الرحيبة، وتجرد من نزعة الهوى، وبهذا تتحقق فيه قيمة إنسانية أخرى هى (الصدق والنقاء).

- ومن خصائص الصداقة المحمدية أنها صداقة تقوم على (الالتقاء والتبادل - والأخذ والعطاء) فهو يحب أصدقاءه على تنوعهم، وهم يحبونه أيضا على هذا التنوع، وتبادل الحب دليل الصدق فيه، وليس يكفى أن تحب الناس ليكون ذلك دليلاً على نقاء معدنك، وصفاء جوهرك إنما يجب أن يحبك الناس، وأن تكون أهلا لهذا الحب - ولقد أحب أصحاب محمد محمداً حباً يجل عن الوصف والبيان.

اشترى صفوان بن أمية زيد بن اليثنية ليقتله - وكان زيد من السابقين إلى الإسلام،

فلماً شد وثاقه تجمع المشركون حوله ساخرين منه، شامتين فيه، وتقدم منه أبو سفيان يقول : (يا زيد - أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه، وأنت فى أهلك؟) فأجابه زيد (والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس فى أهلى». فهذه شهادة صدق يقولها صديق معروض على السيف للقتل - يقولها فى اللحظة التى تهون فيهاالدنيا كلها من أجل برهة من حياة فيأبى الحياة كلها مقابل أن يصاب محمد بشوكة.

وهذا بلال جاءه الموت، وأحاط به أهله يبكون ويصرخون **«واكرياه»** وكان هو بعيدا عن كربهم، كان فى شوق إلى لقاء الصديق الحبيب محمد فقال (واطرباه - غدا ألقى الأحبة - محمداً وصحبه».

ولا أريد أن أذكر قصة الأخوة التى جمع فيها محمد بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فلقد يقال : إن هذا عمل من أعمال النبوة. وأن الأخوة بين المؤمنين صفة من صفات محمد الرسول - وأنا هنا أتحدث عن محمد الإنسان، وصداقة محمد الإنسان.

إن الذين صادقوا محمدا وأحبوه فعلوا ذلك لأمرين : لأنه رسول يهديهم، ويعلمهم، ولإنه إنسان يمنحهم الحب والأخوة والمودة دون تفريق بين لون ولون، أو بين جنس وجنس، لقد كانت صداقته سمة إنسانية، فيها المودة الرحيبة، والذوق الرقيق، والمشاعر النبيلة، وفيها إلى جانب ذلك : السماحة، والشفافية، والنقاء، والوفاء.

وأجمل ما يمكن أن يقال فى إبراز هذا الجانب الإنسانى من حياة محمد هو أصدق ما يقال - وهو قول الله :

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾«سورة التوبة آيه ١٢٨».

ولقد يقال : إن الصداقة نوع من الحب المتبادل، يستوى فيه الطرفان، وينتفع الصديقان، وإن التعامل مع الأصدقاء لا يكشف عن جوهر الإنسان، والرجل لا يعرف فى السراء كما يعرف فى الضراء، ولهذا نريد أن نتحدث عن إنسانية محمد فى معاملته لأعدائه - وأسارع إلى القول بأن محمدا لم يكن عدواً لأحد، وعلى طول عمره، وتحمله لأعباء عمل ضخم، وتعرضه للكثير من الأذى فإنه لم يحمل فى قلبه ضغينة لإنسان ولم يضم جوانحه على حقد أو كره لمخلوق - بل كان دائما : سمحاً ودوداً،

صافيا، مترفعا حتى عن التفكير فى الانتقام - وهذا وحده دليل على كمال محمد الإنسان، والتاريخ غنى بالأمثلة التى ضربها محمد فصارت مثلا فى التسامح والعفو والنبل فى المعاملة :

- كان صلى الله عليه وسلم نائما تحت شجرة، ورآه أحد المشركين فأسرع إليه، ورفع سيفه ليهوى به عليه وهو يقول : من يمنعك منى الآن؟ فقال صلى الله عليه وسلم : **(الله)** فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه الرسول وقال للرجل : ومن يعصمك منى الآن؟ فقال الرجل : كن خير آخذ - فعفا عنه محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهذا عمل لا يمكن فى تاريخ الناس أن يصدر من بشر حتى ولو كان نبيا إلا أن يكون محمداً.

- ولقد نعلم جميعا كيف تصرف مع عبدالله بن أبى رأس المنافقين - وعبدالله هذا عاهد وغدر، وكاد لمحمد وأشاع عنه أحاديث السوء ، وجرحه فى أعز ما يحرص عليه العربى الأبى - لقد قابل محمد ذلك كله بالصفح والغفران، وصلى عليه حين مات، وذهب إلى قبره فى موقف من مواقف السمو الإنسانى يندر أن يكون له مثيل.

- ولقد نعلم جميعا أنه خرج من مكة إلى الطائف يدعو قومها إلى الإسلام والخير فسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أسالوا الدم من عقبيه الشريفين، وتنازعته عوامل الأسى والألم، وأحس بالحاجة إلى عون روحى من السماء فاتجه إلى الله بكلماته الخالدات :

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس - يا أرحم الراحمين - أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى/ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى...». ماذا فعل هذا الإنسان الذى شكا إلى الله ضعف القوة. وقلة الحيلة، والهوان على الناس؟ ماذا فعل حين مكنته السماء من الانتقام؟ لم يزد على الكلمة الرحيمة التى تليق بإنسانيته «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . وهكذا نجد غاية العدوان تقابل بسماحة الغفران، وطغيان السفه والحقد يقابله جلال الرفق والعفو.

- ونحن نعلم أن قومه أخرجوه من مكة فى قصة قاسية مؤلمة، ترك فيها الوطن والديار ، وفارق الأهل والأحبة - ثم لاحقوه هناك فى ديار الغربة بألوان من المؤامرات، وصور من الحرب الدامية وكان ذلك جديرا بأن يقطع ما بينه وبينهم من علاقات، وأن يورث نيران الحقد فى القلوب، فلما مكنه الله منهم، وتم له النصر عليهم، ودخل مكة

فى يوم الفتح الأكبر وقفوا أمامه صاغرين، وسألهم : ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا . أخ كريم، وابن أخ كريم فقال والدنيا كلها تسمع، والتاريخ يحفظ ويشهد : اذهبوا فأنتم الطلقاء. لقد عرفوه فقالوا ما قالوا - وعرف نفسه فقال ما قال . فهل فى تاريخ الإنسانية كلها - قديمها وحديثها - غربيها وشرقيها من يرتفع إلى هذا المستوى الإنسانى ؟.

ومحمد الإنسان هو الذى عفا عن الأسرى فى غزوة بدر، وآثر الفداء على الدماء، ولقى فى ذلك العتاب من ربه ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم** ﴾«سورة الأنفال آيه ٦٧».

إن عفو محمد عن أعدائه كان عفو القادر - لا يعفو إلا وهو فى موقف القوة، وهنا يتحقق المعنى الإنسانى فى معاملة الأعداء، وينتهى دائما بالخير.

جاءه أعرابى ذات يوم يطلب ما لا - فلما أعطاه سأله : أحسنت إليك؟ - قال الأعرابى (لا ولا أجملت) - فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فمنعهم الرسول، ثم دعا الأعرابى إلى بيته فزاد فى عطائه، وسأله : أحسنت إليك؟ - قال الأعرابى : (نعم - فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا) وعلمه الرسول أن يعيد هذا القول على الصحابة - ثم قال لهم :

«إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورا ٠ فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها، وأنا أعلم بها - فتوجه إليها، وأخذ لها من قشام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها. وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار».

هذه صورة من تعامل محمد مع الأعداء، وهى صور نبعت من قلبه الإنساني قبل أن تكون بعض تعاليمه كرسول.

وصدق الله - حين قال لمحمد الإنسان ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾«سورة القلم آيه ٤».

أيها الناس :

صلوا وسلموا - رحمكم الله - على صاحب الذكرى العطرة وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

دروس من الهجرة

الحمد لله ذى الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على أجل خطيب وأنبل إمام وعلى آله وصحبه ما شدا حمام وهطل غمام واكتمل بدر التمام..

فلعلَّ أصدق مقياس تقاس به عظائم الأمور هو مقدار ما تترك فى التاريخ من آثار، ومقدار ما تترك فى المجتمعات من دروس وعبر.

وأصدق ما يقال عن الهجرة / أنها عمل عظيم خالد - له فى التاريخ أثر لايعدله أثر، ونتائج لا تساويها نتائج - أبرز الإسلام من دائرة الوجدان والضمير، إلى دنيا الحقيقة والواقع - كان عقيدة مكتومة فأصبح دعوة معروفة، وكان فكرة تنير القلب، وتصل العبد بالرب فصار دولة تضع المبادئ، وتسنّ القوانين، وتحمل راية العدالة والتحرير، وأصدق ما يقال عن الهجرة أنها مدرسة، تقدم لنا الدروس، وترينا كيف يتحول التاريخ، وكيف تتغير الدنيا، وكيف تصبح الفكرة الجنينة دولة تجد الدنيا فى رحابها الأمن والأمان.

وأول درس نتعلمه من الهجرة هو (المرونة والتحرك) بدلا من الجمود والتوقف.

لقد قوبل المسلمون بألوان من الحرب النفسية، والقسوة البدنية - وتحمل صاحب الدعوة وصبر، وتحمّل المسلمون من ورائه وصبروا، فلما خرج الأمر عن حدود الطاقة البشرية، وأراد الله أن يقدم لنا نموذج التصرف السليم فى الموقف الخطير، ولما لم يكن بد من أن يهاجر محمد بدعوته إلى أرض جديدة هاجر - لكنه وضع للهجرة تخطيطا مدروسا، فلم يخرج إلى حيث تشاء الظروف، ولم يختر أى مكان ترغمه عليه الأحداثُ، ولم يسافر فور اختياره لهذا المكان.

لقد التقى بالوفود، ودرس الطباع، وعرف الناس، ووجد جماعة صالحة، فغرس فى النفوس بذرة الدعوة، ورواها بالحب واليقين، وترك البذور تفعل فعلها فى الضمائر، وتجذب نحوها مَن يَشُمُّ عبير الأمان فى البلد المحروب، ويَعْرف معنى العطاء فى المجتمع المحروم، فلما كثر الجمع، وتهيأت البيئة بعث إليهم من يُعدهم، ويفقههم فى دينهم، ويرعى غراس العقيدة، وَلما تمكنت الفكرة فى كل قلب، وانتشرت فى كل بيت،

وأصبحت يثرب أرضا صالحة للهجرة هاجر - وبهذا وضع الرسول لنا مبدأين - مبدأ الهجرة - ومبدأ الدراسة والتخطيط.

أما مبدأ الهجرة فشريعة إلهية، وسُنة منطقية يتضمن التشريع لها قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم - قالوا كنا مستضعفين فى الأرض - قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ سورة النساء آية ٩٧ - نزلت الآيات فى قوم من المسلمين تخلفوا عن الهجرة مع رسول الله، ثم أجبرهم المشركون على الخروج يوم بدر فقتل بعضهم فى المعركة، وتحدث الناس عنهم، فصورت الآيات موقفهم، وقالت إنهم ظلموا أنفسهم حين تركوا الهجرة مع قدرتهم عليها - فالهجرة أمر مشروع، وهى فى سبيل الله - سواء أكانت فى سبيل العقيدة أو فى سبيل الرزق، وصدق الله : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ سورة النساء آية ١٠٠ - فالهجرة غاية - بعدها الخيرُ والسَّعة.

ولقد ثبت فى الصحيحين عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «إنما الأعمال بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وأما مبدأ التخطيط فيتضح فى أمور كثيرة - فإن محمدا صلوات الله وسلامه عليه أرسل أتباعه إلى بقاع مختلفة.

إلى الحبشة - وإلى يثرب، وخرج هو إلى الطائف، وكان بذلك يتعرف إلى الناس، ويبحث عن الأرض الصالحة للدعوة، ولما استقر عزمه على الهجرة اختار يثرب/ لما له فيها من أهل وعشيرة، ولما له فيها من أتباع وأصحاب، وحدد الموعد فى ضميره، وكتم الأمر فى نفسه، واختار البديل فى فراشه، والرفيق فى سفره، وردّ الودائع والأمانات، وأعد الزاد والراحلة، ووضع كل شىء حيث يجب أن يوضع، فلما حانت الساعة جعلها ساعة ليل تهدأ فيها الطريق، ويغفل فيها الرقيب، ثم اتجه إلى الجنوب والشمال مقصده، وآوى إلى الغار ينتظر والإسراع أولى به - وكان معه بعد ذلك كله، وقبل ذلك كله - نصُر الله :﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله - إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول**

لصاحبه لا تحزن - إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا - والله عزيز حكيم﴾ سورة التوبة آية ٤٠.

وهذا درسٌ فيه دروس - وعِبرة فيها عبر - وعظة تجْمع الكثير من العظات.

وسيطلع هلال، ويغيب قمر، وسيأتى ليل يعقُبه نهار - وستبقى الهجرة كما كانت دائما دروساً وعظات.

وسنبقى فى موقف الذكرى نرقب الهلال : صورةً مشرفة لعمل عظيم خالد - وبشرى مورقة بالخير والنصر :

أيُّها الطالع الحبيبُ حنانا ... يملأ الكون بهجة وأمانا

ياقرين الأمجاد والحب والنصر ... ورمزا نُجِل فيه الزمانا

صحبَ الهجرة المجيدة عيدا ... ألمعيًّا يحرر الإنسانا.

أيها الأخ الكريم

إن الباحث فى موضوع الهجرة يجد فيه الكثير من المبادئ والمثل، ويأخذ منه ألوانا من الدروس والقيم - وإذا كنا قد وقفنا قبل عند درس واحد رأينا فيه دروسا، فنحن على موعد مع دروس أخرى :

أولها : درس (اليقين والثقة) - وأنت إذا بحثت موقف كل من شارك بعمل فى الهجرة وجدت هذا الدرس :

باليقين والثقة أقدم على بن أبى طالب على المبيت فى فراش محمد، وهو يعلم أنه مطلوب، وأن دمه مطلول، وأن القبائل قد اجتمعت على قتله - لكن قلبه كان عامرا باليقين والثقة، فلم يمنعه سيف يلمع فى ظلام الليل، ولا جماعة تدور حول البيت، ولا وحدة ترافقه فى الفراش. وباليقين والثقة أقدم أبو بكر على الصحبة، وكان الصديق الوفى المخلص - ترك بيته وأهله، ومغانم تجارته، وتنازل عن مكانة مرموقة بين قومه، وقومه سادة بين الأقوام - ترك ذلك كله، وخرج مع صاحبه، محبا وفيا مضحيا - يحميه بروحه وبدنه ووجدانه، ويفديه بولده وماله ومنزلته وحياته - وباليقين والثقة فعل ذلك كله.

وأسماء - الفتاة الصغيرة تمضى فى لهيب الصحراء، تكاد جمرات الحصى تشوى

قدميها. وتكاد أصابع أبى جهل تمزق صدغيها، ويكاد عودها الغض أن يصير طعاما لوحش جائع من بنى الإنسان أو الحيوان، لكنها لا تبالى لأنها تسير فى ظلال الثقة واليقين.

ومحمد ﷺ - يكون فى موقف يرتفع فيه عن ضعف الإنسان حين لا يكون للضعف مكان، ويرتفع فيه إلى ذروة اليقين حين لا يكون ثمة إلا اليقين.

باليقين فارق الحىّ والدار، وترك الأهل والمنازل، ونسى مرابع الصبا ومراتع الشباب، إن كان له فى الصبا والشباب مرابع ومراتع.

وباليقين أقدم على المجهول، وما فى الدنيا أخوف من المجهول - وأخوف ما يكون الإنسان من غده حين يحمل عبء رسالة - وأمانة دعوة - لكنها العقيدة : نسى فى سبيلها كلَّ ما كان، ولم يعد أمامه إلا ما سيكون - وبهذا حقق القيمة الكبيرة للكفاح والجهاد والصبر.

وباليقين خرج فى رداء الليل - يلفُّه ستار من الثقة، وتكسوه ثياب من السكينة، وتدفعه روعة اليقين إلى قبضة من تراب يلقى بها فى وجوه القوم، والزمن يسجل كلمته «شاهت الوجوه» ثم ترك القوم ومضى، وخلفه بقايا من تراب منثور على رؤوسهم، وغشاوة تغطى على قلوبهم وعيونهم ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾سورة يس آية ٩.

وباليقين والثقة ملأ قلب أبى بكر بالطمأنينة، وحدثه حديث الأمنة والجلد والتحمل ﴿ **إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين - إذ هما فى الغار - إذ يقول لصاحبه لا تحزن - إن الله معنا** ﴾ سورة التوبة آية ٤٠ - (إن الله معنا) - هذه هى الثقة الكاملة، وهذا هو اليقين الواضح. وما كان خوف أبى بكر على نفسه - وإنما كان خوفا على صاحبه، وعلى دعوته - وما كان لمثل هذين الصاحبين إلا نصر الله وتأييده : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا - والله عزيز حكيم** ﴾ سورة التوبة آية ٤٠.

وثانى هذه الدروس - (الصبر) - ولقد علمتنا الأيام أن النصر وليد الصبر، وأن النجاح وليد الكفاح - وما كانت هجرة محمد مجرد رحلة من مكة إلى المدينة - لكنها

كانت رحلة جهاد ومشقة، ونقطة تحول فى التاريخ، وعملا عظيما يتبعه عمل عظيم دعا إليه القرآن الكريم عقب آية الهجرة حيث قال : ﴿**انفروا خفافا وثقالا - وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾سورة التوبة آية ٤١ - ومعنى (خفافا وثقالا) شبابا وكهولا، أغنياء وفقراء، فى اليسر والعُسر - فهى دعوة إلى المشقة والجهاد والتعب، وأمر من الله، للكبير والصغير، والغنى والفقير، فالإسلام يربى أتباعه على المشقة، ولا يقبل منهم ترفا ولينا.

وثالث الدروس : أن الهجرة لم تكن هروبا - بل كانت تصميما، ولم تكن فرارا بل كانت إصرارا، وما هاجر الرسول والمؤمنون لينعموا بالإقامة والطعام والشراب والأمان - بل هاجروا ليبدأوا جهادا من نوع أعظم، وليؤدوا واجبا أكبر.

كانوا قبل الهجرة يُرمون بالكلمة النابية، ويضربون بالحجر الصلد، أو يعانون من مشقة القطيعة والجوع - لكنهم بعد الهجرة قوبلوا بالسيف والدم، وتجمعت عليهم الجيوش الزاحفة، والمؤامرات الدنيئة - وبلغت بهم الشدائد حدا زاغت فيه الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. ﴿**هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**﴾ سورة الأحزاب آية ١١.

لم تكن الهجرة رحلة - بل كانت معركة، ولم تكن نهاية شدة، بل كانت بداية محنة. ولم تكن إدبارا عن اللقاء، بل كانت إقبالا على البلاء.

بها انتهى عهد وبدأ عهد - وزال سلطان وقام سلطان - وتحقق للمسلمين النصر. بها أشرقت الأرض بنور ربها، وارتفعت راية الإسلام على ربوع الأرض تخفق بالعدل، وتظلل الناسَ بالحرية والأمان والسلام.

والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل

عباد الرحمن - وأوصافهم

التواضع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله جل وعلا، من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا لعبادته وإعمار الكون بشرعه وفطرنا على الحق وأشهدنا على أنفسنا أنه الحق.

وأشهد أن سيدنا ونبينا وقائدنا وقدوتنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح الله به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وربى جيلا ربانيا فتح الدنيا كلها بنور العقيدة وصفاء العبادة ومحاسن الأخلاق فاللهم اجزه عنا وعن الإسلام خير ما جزيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته.

أما بعد..

فقد حدثنا القرآن الكريم فى عبارته القوية الآسرة حديث «عباد الرحمن» الذين اصطفاهم وقربهم.. وأعطاهم من نعيم الرضا ما يلائم فضله، ويناسب خيره - هم عباده وأحبابه، وهم أولياؤه وخلصاؤه، ﴿ **ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾. سورة يونس الآية ٦٢.

ولقد صور القرآن الكريم هؤلاء العباد فى صورة واضحة متكاملة، خطوطها من الطاعة والتقوى - وألوانها من الرجاء والنجوى، وحدودها هى الكمال الإنسانى فى قمته - وهى صورة من البلاغة والإيجاز - فيها ما فى كل صور القرآن من إعجاز - فيها سحر وقوة، وفيها دعوة إلى الصفاء وروعه. قال الله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما - إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا - إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات - وكان الله غفورا رحيما** ﴾ **صدق الله العظيم** سورة الفرقان آيات ٦٣ : ٧٠.

ونقف اليوم عند الصفة الأولى لعباد الرحمن - وقد عبرت عنها الآية تعبيرا موجزاً رائعا ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾.

لقد فهم المسلمون الآية على صورتين : الأولى : صورة الضعف والذلة، صورة الإنسان يمشى فى جانب الطريق قد أثقلته الأحزان، وعلاه الهوان - يتوارى من الناس كأنما يريد أن يختفى فى ظلال الحصى لو استطاع. وهذه صورة كاذبة خادعة، بعيدة عن غاية الإسلام فى تربية أتباعه على العزة والكرامة - وما يحاول أن يتظاهر به بعض الناس من ضعف واستسلام إنما هو لون من الرياء والنفاق وخداع المجتمع، لون من التصنع والتكلف المهين، يرفضه الإسلام، وتأباه العزة المحمدية - قال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل فى نفسه من غير مسكنة». ورأى عمر بن الخطاب شابا يمشى على هذه الصورة فقال له : ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال لا يا أمير المؤمنين - فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشى بقوة - ولقد كان رسول الله يمشى فى قوة كأنما يخط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له - ولنا فيه القدوة الحسنة.

أما الصورة الثانية التى أرادها الله لعباده فهى صورة الوقار والجلال - صورة السكينة والاتزان - صورة تظهر للناس بالحياة والنضارة والإشراق والبهاء - صورة من يقول «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن».

(فالهون) فى الآية معناه الوقار والجلال والسكينة - لكن ذلك مشروط بالبعد عن الخيلاء والكبرياء - لأن الإسلام لا يريد من (عباد الرحمن) أن يتركوا الذلة الكاذبة إلى الكبرياء والبطر والاستعلاء. نحن أمة وسط، وملتنا البيضاء تمشى على طريق الخير والفضيلة دون تفريط أو إفراط . ويتنافى مع (الجلال والوقار) ما يلجأ إليه بعض الناس حين يسرعون إلى الصلاة فى هرولة تذهب بالهيبة والكمال - والله سبحانه وتعالى لم يرد من المسلمين هذا حين دعاهم إلى صلاة الجمعة فى سعى وهمة ﴿ **إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ سورة الجمعة آية ٩ - فلقد قال صلى الله عليه وسلم (**إذا أتيتم الصلاة فلا تاتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم منها فصلوا - وما فاتكم فأتموا**). إذن فالمراد بالسعى فى الآية الكريمة السعى الذى لا يتنافى مع ما يفرضه الإسلام على رجاله من كمال ووقار.

ونؤكد ما قلناه من أن صورة الوقار والجلال تبتعد تماما بالمسلم عن الكبرياء والغرور - والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين..** ﴾سورة النحل آيه ٢٣ . ﴿ **أليس**

فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾سورة الزمر آيه ٦٠. ويقول رداً للإنسان فى طغيانه ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ سورة الإسراء آية ٣٨ - ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق - خلق من ماء دافق - يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ سورة الطارق آيات ٥ : ٧. ويقول : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره، من أى شئ خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره ﴾ سورة عبس آيات ١٧ : ١٩.

الصورة الصحيحة لعباد الرحمن تنفر من الذلة والهوان - وتأبى الاستعلاء والبطر والطغيان - وتقف بالعبد فى حدود السكينة والوقار والهيبة.

الصورة الصحيحة هى صورة الحسن رضى الله عنه حين قيل له : ما أعظمك فى نفسك، فقال : إنما أنا مسلم - ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾سورة المنافقون آيه ٨.

حسن الخلق

أما عن الصفة الثانية المفهومة من قوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾سورة الفرقان آيه ٦٣.

العبد المؤمن بربه يكون دائما سمح النفس، رحب الصدر - ويكون دائما عف اللسان، نقى الوجدان - يتبع السيئة بالحسنة، ويقابل الجهل بالحلم، وإذا اعتدى عليه جاهل بالقول أو بالفعل عفا وصفح، ولم يقل إلا خيرا وسلاما ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ سورة القصص آيه ٥٥. وعباد الرحمن هم المتقون، والمتقون هم الكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، ويزيدون على ذلك إحسانا وكرما ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ سورة آل عمران آيه ١٣٤.

والسلام هو رسالة الإسلام، منه أخذ اسمه، وفى حدوده دارت تعاليمه ، ولا يكون المؤمن كامل الإيمان إلا إذا أسلم قلبه ووجدانه وجوارحه لله رب العالمين، وهكذا علمنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه - علمنا بالفعل وبالقول - فقد كان خلقه القرآن - وسأله رجل عن حسن الخلق فتلا قول الله تعالى : ﴿ خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين ﴾ سورة الأعراف آيه ٩٩. ثم قال صلى الله عليه وسلم مبينا حسن الخلق «هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» - وهذه ثلاث صور للعدوان يوضحها الصادق الأمين فى حديثه - أفليست القطيعة والمخاصمة لونا من العدوان يجرح الإحساس، ويثير فى النفس كوامن الألم؟ أو ليس الحرمان عدوانا بشعا على حقك يثير حفيظتك ويوقد نار عداوتك؟ أو ليس الظلم قمة العدوان وغايته، وآثاره تبقى

فى النفس دهرا طويلا تثير الحقد والكراهية وتدفع إلى الثأر، أو ليس ظلم القريب أو الصديق سكينا يمزق القلب - بل هو أشد وأقسى كما قال شاعرنا العربى:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند؟

فإذا جاء المؤمن الصالح بعد ذلك فسما على كل دوافع الحقد والكراهية، ونسى كل أسباب الشر، وقابل القطيعة بالصلة، والحرمان بالعطاء، والظلم بالعفو كان عبدا من عباد الرحمن يستحق أن يضمه الله إلى رحابه، وأن يمجد فعله فى كتابه - وصدق الرسول الكريم «أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق».

واختصم رجلان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يسب الآخر، والثانى يقول (عليك السلام) فقال له الرسول (أما إن ملكا بينكما يذب عنك - كلما شتمك هذا قال له : بل أنت، وأنت به أحق - وإذا قلت له : وعليك السلام قال : لا بل عليك ، وأنت أحق به».

ولا يظن أحد أن حسن الخلق معناه الضعف والذلة، أو التهاون وقبول العدوان، وامتهان النفس وإيثار السلامة جبنا - لا فالمسلم قوى عزيز، والإسلام ربانا على العزة وإباء الضيم - وإنما المراد هنا بالصفح وإيثار السلامة أن تعفو من موقف المقدرة، وأن تصفح وأنت قادر على أخذ حقك، وأن تتسامح فيما تستطيع الحصول عليه - بهذا وبهذا وحده تظهر حقيقة النفس المؤمنة الصافية، ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم لين الجانب، سمحاً مع كل إنسان، وبرز تسامحه ونقاء خلقه مع الضعاف من الخدم قال أنس : «خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط، ولا قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته» إنه سمو النفس، إنها صفات النبوة الكريمة تجعله لنا دائما قدوة حسنة، كان صلى الله عليه وسلم نائما تحت شجرة فوقف على رأسه رجل من المشركين وبيده السيف وقال : يا محمد من يمنعك منى الآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الله - فسقط السيف من يد الرجل - فأخذه الرسول وقال : ومن يمنعك منى الآن ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ - فعفا عنه الرسول الكريم وقال : اذهب فأنت حر - هل بعد هذا سماحة؟ هل بعد هذا صفح؟ هل بعد هذا سمو روحى، وسلام قلبى؟ - وماذا كانت النتيجة؟ كان أن استولى على قلب الرجل ومشاعره فاندفع يقول : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله - وهكذا تحقق قول الله ﴿**ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾ سورة فصلت آيه ٣٤.

ولقد عذب المشركون محمدا وصحبه، آذوهم فى أموالهم وفى أنفسهم، وأذاقوهم الجوع والحرمان، ودبروا أمر قتله صلى الله عليه وسلم، وأخرجوه من وطنه وأهله، وظلموه ظلما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسانية - فلما أمكنه الله منهم، وعاد إليهم ظافرا منتصرا وحطم أصنامهم، وأذل كبرياءهم وتوقعوا منه كل شئ. قال لهم : ماتظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم - وقد كان - لقد قال عبارته التى ملأت سمع الوجود، وهزت تاريخ الإنسان : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ومضت كلمته الخالدة على الزمن لتثبت أنه أول عباد الرحمن سماحة وصفاء نفسٍ، ونقاء سريرة وصدق الله ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾سورة الفرقان آيه ٦٣.

يبيتون سجدا وقياما

ومن أروع الصفات التى مدح الله بها عباده وأصفياءه - ما ورد فى قوله تعالى : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٤ : ٦٦. فهم عباد خالصون لربهم نهارهم فى العمل والطاعة، وليلهم بين الأمنة والعبادة، هم بين راكع وساجد، وضارع وقائم ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ سورة الذاريات آيات ١٧ ,١٨. ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ سورة السجدة آيه ١٦. ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه؟** ﴾ سورة الزمر آيه ٩.

وعبادة الله فى الليل لها حلاوة، وفيها لذة ومتعة - يشعر العبد فيها بالقرب من بارئه، ويرى الكون كله نجوى وصلاة ، ويحس أن الدنيا قد تجمعت فصارت وحدة هائمة فى جلال الله، سابحة فى بحار من نوره.

وعباد الرحمن ينتظرون الليل فى شوق ولهفة - حتى إذا ما جنهم الظلام، ومضى كل إلى غايته، وخلا كل برغبته - نصبوا لله أقدامهم. وافترشوا وجوههم ، وأذلوا جباههم، وملأت العبرات عيونهم، وسالت أنوار الرضوان فى قلوبهم، وحفتهم الملائكة بروحانية حانية صافية - وكان المألوف فى التعبير أن يقال (**يبيتون سجدا وقياما لربهم**) لكن الآية الكريمة قالت ﴿ **يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ سورة الفرقان آيه ٦٤. دلالة على أن السجود والقيام لله وحده لا شريك له فيهما لأن التقديم يفيد التخصيص - لقد تركوا الدنيا كلها وراء ظهورهم، ونسوا ما فيها من متاع وزينة، وطرقوا باب الله الذى لا يرد سائلا، ولا يخيب راجيا - وبهذا التعبير أيضا دلت الآية على أن ليلهم كله لله. لا يحتفظون منه

بشئ لأنفسهم، ولا لأهلهم ، ولا لأموالهم، ودلت على أنهم اختاروا وقت البيات والراحة للعمل والطاعة، فاستبدلوا براحتهم عبادة، وبنومهم سهرا. وبهذا استحقوا أن يكونوا من عباد الرحمن.

ولعل سائلا يسأل : وكيف يستطيع إنسان أن يظل ليله كله ساهرا عابدا؟ وهل فى مقدور الطاقة البشرية أن تفعل ذلك؟ ولعلنا لا نعدو الصواب حين نقول : إن الله تعالى لم يطلب من عباده أن يقضوا الليل كله فى طاعته، بل جرت سنته فى خلقه أن يجعل لأبدانهم حقا، وأن يكون العبد بين الطاعة والعمل من جهة، وبين الراحة والنوم من جهة أخرى ﴿ **وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا** ﴾ سورة النبأ آيات ٩ : ١١. ولم يطلب جل جلاله حتى من الرسول العظيم أن يقوم الليل كله - بل قال له : ﴿ **قم الليل إلا قليلا - نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ سورة المزمل آيات ٢ : ٤ - ولهذا جاءت آيات أخرى قاطعة فى دلالتها على هذا المعنى﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ سورة يونس آيه ٦٧. ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ سورة القصص آيه ٧٢.

فالليل - بإرادة الله - سكن وطمأنينة وراحة - والنوم - برحمته تعالى - أمن وسلامة ﴿ **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه** ﴾ سورة الأنفال آية ١١. ففى النوم أمنة للقلب، وانصراف عن هموم الدنيا ومشكلات العيش - ولهذا يرى بعض العابدين أن من قضى ليله بين العبادة والنوم حسن وجهه يقول : ألا ترى إلي قوله تعالى ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ سورة الزمر آية ٢٣. فقد وصفت الجلود باللين والطراوة وهما من ألوان الحسن - ولقد روى «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار».

وجميل معا أن نشير هنا إلى أن عبادة الليل تكسب العابد علما - اقرأوا معى مرة أخرى قول الله : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾سورة الزمر آية ٩.

فوصف القائم بالعلم، ورفعه فى مقام الموازنة عن الذين لا يعلمون، وبالتالى لا يسجدون ولايقومون ولعل من رحمة الله أنه جعل النوم نفسه عبادة، وذلك مشروط بأن يكون هذا النوم راحة من عمل النهار، ومن طاعة الليل، وبأن يكون فى فترة محدودة من الليل، وهذا هو المفهوم من بعض النصوص التى ذكرناها، وفى ضوء هذا المعنى يمكننا أن نصل إلى ما

ذكرنا من أن ليل العابد كله لله، بما فيه من نوم وسهر، وبما فيه من راحة وطاعة، وهذا هو مدلول قوله تعالى : ﴿ **يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٤.

منحنا الله القدرة على طاعته، وأذاقنا حلاوة مناجاته وعبادته، وجعل ليلنا خالصا له، لنكون من عباده المخلصين.

أما دعاؤهم

أما دعاؤهم الذى يرفعونه إلى ربهم ﴿ **ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٥ : ٦٦. ونسأل : هل نجواهم لله كانت كلها فى سبيل هذه الغاية؟ وهل حرموا أنفسهم لذيذ النوم من أجل النجاة من عذاب جهنم؟ إنها لغاية تتقطع دونها الأعناق، وأمل يرتجيه كل طائع لله مشتاق - ومالهم لا يرجون ذلك وقد قدموا الأسباب؟ غير أننا نقول : إنها غاية بعدها غايات ودرجة تعلوها درجات - والناس فى عبادة الرحمن على ألوان :

من الناس من يعبد الله على حرف - فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه - خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، هذا العابد الكاذب الشاك يظل فى طاعته ماواتته النعمة وتناساه الشر، حتى إذا ما ابتلاه الله وامتحنه انكفأ على وجهه، وارتد كافرا - يحمد الله فى السراء، ولا يشكره فى الضراء يفرح بالريح الرخاء تهب على سنين حياته حتى إذا جاءته الريح العاصف ضل سعيه، وخاب رجاؤه، وغلبت عليه شقوته فكان من الضالين.

ومن الناس من يعبد الله وهو ظالم لنفسه، خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وعاش على الأمانى ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وأن يشملهم برحمته، فبها وحدها ينعمون بالجنة ، ولا حدود لفضل الله.

ومن الناس مقتصد فى عبادته - يؤدى الفرائض ، ويجتنب النواهى - ويقف عند هذه الحدود لا يزيد نافلة، ولا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر يفهم قول الله : ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ سورة المائدة آية ١٠٥. على ظاهره يعبد الله طمعا فى ثوابه، وخوفا من عقابه، يرجو النجاة، ويخشى العقاب، قد كتبه الله من أصحاب اليمين ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ سورة الواقعة ٩٠ ، ٩١.

ومن الناس سابق بالخيرات - يرجو كغيره الثواب، ويخاف العقاب - ثم لا يقف عند

حدود الواجبات بل يزداد قربا من ربه، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر - يريد من الناس أن يكونوا معه على طريق الحق، فيحارب المعصية أنى تكون وكيف تكون، قد حمل رسالة الإصلاح، ومضى وراء الرسل مصباح هداية، ومصدر خير فهو حبيب الله قال فيه الصادق الأمين «والذى نفس محمد بيده، لئن شئتم لأقسمن لكم : إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة».

ومن الناس من تسمو به غايته إلى درجة عليا يكون فيها فى مقام أمين، قد تجرد من دنياه، وفنى فى ذات الله، أحب الله فأحبه الله، وصار ملائكيا قدسيا مطهرا - نسى النار وعذابها، ونسى الجنة ونعيمها، وغرق فى بحار النور الربانى، قد جمع الخير من أطرافه، وعاش لله ولذة طاعته فهو من المقربين ﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ سورة الواقعة آيات ٨٨ , ٨٩ - يعبد الله لأنه فنى فى جلاله، لقد انكشفت له الحقائق، فكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

فأين نجد (عباد الرحمن) بين هذه الأصناف من الناس ؟ ظاهر الآية يجعلهم فى مرتبة وسطى تضمن لهم الرضا والقرب، لكنهم فى الحقيقة لا يكتفون بمجرد الدعاء، ولا ينتهون عند الخوف من النار لأن عذابها غرام لازم، وشقاء دائم، ولأنها أسوأ مقام ينتهى إليه عبد الله - لا ينتهون عند ذلك، وإنما هو حال من أحوالهم، ودرجة من درجات قربهم، ومنزلة من منازل الرضوان يمرون بها فى طريق الله .. حتى إذا ما وصلوا إلى الغاية كانوا كما قالت رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى ذاتك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا

وصدق الله وعده : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة** ﴾ سورة القيامة آيات ٢٢ , ٢٣.

وتلك عقبى المتقين.

القوامة فى الإنفاق

وصلت بنا آيات (عباد الرحمن) إلى موضع الإنفاق، وشرعت الاعتدال فيه، والوقوف

عند حدود العقل والحكمة فى أمور العيش، فلا تفريط ولا إفراط، ولا إسراف ولا إمساك، ولا تبذير ولا تقتير ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما**﴾سورة الفرقان آية ٦٧.

هم عند أمر ربهم وسط بين الطرفين ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ سورة الإسراء آية ٢٩. وكما أوصاهم رسولهم «ما أحسن القصد فى الغنى، وما أحسن القصد فى الفقر».

والصورتان المتقابلتان فى الإنفاق صورتان بشعتان قبيحتان - فيهما إغراق ومبالغة، وفيهما سفه وسوء رأى - فالذى يضيع الأموال فيما يضر ولا ينفع قد أتبع نفسه هواها كالأنعام ترعى فى كلأ ممرع يمتد مع البصر بلا نهاية، تطأ الخير بأقدامها، وتنسى يوما تطوى فيه الكشح على الجوع عندما يجف الزرع ويصوح النبات، وبئس ما يفعل - والذى يحرم نفسه وعياله نعيم الحياة، وطيبات الرزق التى أحلها الله، ويضم الأموال بعضها إلى بعض قد أثقلته النفقة، وربط الغل يديه إلى عنقه - يرى ضوء الشمس يملأ الكون كله فيكاد من شحه أن يحرم نفسه ما فيه من دفء ويبقى مقهوراً محروما، وبئس ما يفعل.

الإسراف سفه وضياع ومنقصة، وإنفاق للمال فى غير ما أحل الله، والمبذر قرين الشيطان وأخوه، كلاهما ضل طريق الخير، وكلاهما خالف أمر ربه ﴿**ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين . وكان الشيطان لربه كفورا**﴾ سورة الإسراء آيات ٢٦، ٢٧.

والبخل شح وغل ومجبنة. وسوء ظن بالله، ووضع للأمور فى غير مواضعها ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ سورة التغابن آية ١٦ - ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم وصدق رسول الله «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا» وروى عن أبى هريرة «مانقص مال من صدقة، ومازاد الله عبدا أنفق إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله» . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للمنفق والبخيل فقال : «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما - فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره - وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع.

وعباد الرحمن قوام بين الصورتين، ووسط بين النقيضين - ومعتدلون بين الناحيتين، وخير الأمور أوسطها - هكذا علمنا الإسلام، وهكذا يجب أن يكون كل مؤمن متمسك بتعاليم دينه.

غير أن هناك لونا من الإنفاق لاسرف فيه ولا تبذير، وكل ما ينفقه المؤمن فيه ذخيرة له عند ربه، وحسنة مضاعفة تضم إلى حسناته يوم يلقى الله ، هذا اللون هو الإنفاق فى سبيل الله - قال تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء - والله واسع عليم** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦١ - وسبيل الله هو طاعة الله - وهو الجهاد وهو الحج على آراء للعلماء.

وعن ابن عمر : لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم «رب زد أمتى» قال فأنزل الله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾سورة البقرة آية ٢٤٥ - قال الرسول «رب زد أمتى» فنزلت : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾سورة الزمر آية ١٠ - وهكذا يصل فضل الله إلى درجة لا حساب فيها ولا حدود.

ولا عجب بعد ذلك أن يزود عثمان بن عفان جيشا من جيوش المسلمين خرج فى سبيل الله، وأن يأتى أبو بكر بكل أمواله فيضعها أمام رسول الله ، ويسأله الرسول الأمين : وماذا تركت لأهلك ، فيجيب الصديق : تركت لهم الله ورسوله.

عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفى الماء النار.

رزقنا الله، الاعتدال فى كل أمورنا، والقوامة فى إنفاق أموالنا، وسدد خطانا على طريق الهدى والرشاد.

الموحدون

ولقد وصل بنا الحديث عن (عباد الرحمن) وصفاتهم إلى «عقيدة التوحيد» ولقد قال الله تعالى فى حديثه عن هؤلاء العباد ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨.

ولا جدال فى أن الإسلام هو دين التوحيد، وأن عقيدة (الوحدة) فيه هى نتاج «لكل المبادئ الأساسية التى تكون هذه العقيدة - لقد جاء الإسلام وفى العالم كثير من التصورات والفلسفات والأفكار التى تتعلق بالاله، هل هو واحد أو اثنين؟ وهل هو إله خير

أو إله شر؟ ثم برزت فكرة التثليث لتزيد من غيوم الجهالة، ولتبعد العقل البشرى عن التصور الصحيح لفكرة الإله، - وهكذا تراكمت صور الجهل وغيوم الشك والحيرة على العقل الإنسانى إلى درجة قد يصعب علينا اليوم أن نتصورها - ولا عجب بعد ذلك أن يكون الهدف الأول للإسلام هو أن يحرر العقل البشرى من هذه الأوهام، وأن ينقذ الضمير الإنسانى من هذه الغيوم، وأن يجعل أساس العقيدة فيه التوحيد الشامل الكامل.

والقرآن الكريم يحفل بعقيدة (التوحيد) فيقررها فى صور قاطعة، ويحارب الشرك والكفر فى كثير من الآيات، فالله يقول فى سورة الإخلاص ﴿**قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد - ولم يكن له كفوا أحد**﴾ سورة الاخلاص - فالله أحد فى ذاته وفى صفاته وفى كماله وقدسه وجلاله - وكلمة (أحد) هذه لا تطلق على غير الله أما كلمة (واحد) فقد تطلق على الناس والكائنات، وكلمة (أحد) أدل على معنى (الأحدية) من كلمة (واحد).

والله يقول: ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ سورة الكهف آية ١١٠ - فهو واحد لا شريك له ، وهو مقصور على ذلك بأداة القصد (إنما) ففى الآية دلالة جازمة على انفراد الله بالوحدانية - ومثلها فى نفس الدلالة قوله تعالى : ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين - إنما هو إله واحد**﴾ سورة النحل آية ٥١ - فالاداة (إنما) موجودة بنفس الدلالة، والضمير (هو) يزيد الدلالة على أن الله وحده هو المقصود بصفة الوحدانية. والنهى السابق ﴿**لاتتخذوا إلهين اثنين**﴾ مؤكد للعقيدة قبل تقريرها، أو ممهد لهذا التقرير على ما تقتضيه بلاغة التعبير القرآنى المعجز.

وفى آية الكرسى تتقرر العقيدة نفسها فى وضوح فريد ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾ سورة البقرة آية ٢٥٥ - فهو الله، وهو واحد ولا إله غيره بصيغة أخرى من صيغ القصر والتخصيص ﴿**لا إله إلا هو**﴾ -والوحدانية هى الأساس، ثم تأتى بعدها الصفات الأخرى - فهو الحى، وهو القيوم، وله ما فى السموات وما فى الأرض، وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

وتبدأ سورة آل عمران بتأكيد هذه العقيدة بنفس التعبير ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾سورة البقرة آية ٢٥٥. فتضع المعنى الأساسى فى ضمير كل مسلم، وكأنما يريد الله سبحانه أن يبدأ بهذه العقيدة ليقرر بعدها الكثير من صفات الله - فهو مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، والدين عنده هو الإسلام ﴿**إن الدين عند الله**

الإسلام﴾سورة آل عمران آية ١٩ - ثم يدعو الله فى هذه السورة عباده إلى حب هذا الإله ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ سورة آل عمران ٣١ - حتى إذا ثبت ذلك كله، حتى إذا ما وضعت القاعدة، ودعمت بالأدلة القاطعة كانت الدعوة التى وجهها القرآن إلى أهل الكتاب ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ سورة آل عمران ٦٤.

هذا هو هدف الإسلام أن يضع أساس عقيدة التوحيد ويؤكدها، ثم يدعو كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إليها، ويحارب فكرة تعدد الأرباب التى سادت قبل الإسلام.

وحتى لا تهتز هذه العقيدة بعد ذلك بأى لون من ألوان الشرك حارب الإسلام فكرة الشرك، ونهى عنها، لتظل عقيدة المسلم نقية/ صافية/ طاهرة/ خالصة لله تعالى : ﴿قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين- بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾سورة الزمر آيات ٦٤ -٦٦ .

فالتوحيد وحى لمحمد، ووحى للرسل من قبله - والشرك يحبط العمل، وينتهى بالخسران، والعبادة لا تكون إلا لله وحده - وجريمة الشرك هى أكبر الكبائر ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ سورة النساء آية ١١٦- ضل وضلاله بعيد فى أساسه - وفى غايته وفى سورة الأنعام يقرر الله العقيدة على لسان محمد ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ سورة الأنعام ١٥١ - وفى سورة المائدة يسوقها على لسان عيسى فى اعتراف بعيد فى دلالته ومعناه ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ سورة المائدة آية ١١٧ .

هذه هى عقيدة التوحيد فى الإسلام، وهى لهذا صفة أساسية من صفات عباد الرحمن فهم لا يدعون مع الله إلها آخر - إنما يدعونه وحده، ويعبدونه وحده، ويقصدونه وحده، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله أندادا وهو خلقك.

أما لماذا جاءت هذه الصفة بعد غيرها من صفات عباد الرحمن فلذلك موضعه من حديث آخر.

احترام النفس البشرية

من صفات (عباد الرحمن) أنهم لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يعتدون على حق الإنسان فى الحياة التى منحها له الله، هكذا وصفهم ربهم حين قال : ﴿ولا يقتلون

النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾سورة الفرقان آية ٦٨. ودافعهم إلى ذلك أمران :

الأول : أن الذى منح الإنسان حق الحياة هو الله تعالى، وهو وحده الذى يملك أن يسترد ما منح، وأن يأخذ ما أعطى، وقتل الإنسان لأخيه الإنسان فيه عدوان على هذا الحق، وعلى صاحبه عز وجل.

الثانى : أن الله قد كرم هذا الإنسان ، وفضله على كثير من خلقه، وجعله خليفته فى الأرض ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾سورة الإسراء آية ٧٠ - وجدير بالعبد المؤمن أن يحترم هذه النفس البشرية، وأن ينزلها مكانة عالية من التقدير تنزيها لخالقها، وتعظيما لبارئها، وأول مظاهر الاحترام أن يبقى عليها فى ملك الله، تقدس جلاله، وتدلل على عظمته، وتقدم ذرية صالحة تنضم إلى عباد الرحمن

عباد الرحمن يحترمون حدود الله وشرائعه، ويحترمون النفس البشرية - قد تطهرت نفوسهم من الحقد والطمع، وتخلصت من أدران البغضاء، وعاشت خالصة لله، مؤمنة به، واثقة من فضله وخيره، وهى لهذا تصون الروح الإنسانية، وتحفظ على كل نفس حقها فى الحياة لأنها تعلم أن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. هكذا كتب الله على عباده، وهكذا مضت إرادته.

وقتل النفس البشرية جريمة لا مثيل لها، وهى قرينة الشرك بالله، بل فيها شرك بالله واعتداء على حقوقه، وتجاوز لحدوده ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ .سورة الطلاق آية١- والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ** ﴾ سورة النساء آية ٩٢ - فليس لمؤمن أن يقتل مؤمنا بوجه من الوجوه، وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث - النفس بالنفس ، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وحتى لو وقع شئ من هذه الثلاث فليس لأحد من الرعية أن يقتل ، وإنما ذلك للإمام أونائبه - وبعد أن بينت الآيات كفارة الخطأ فى القتل عادت لتؤكد النهى القاطع عن القتل العمد ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما** ﴾سورة النساء آية ٩٣ - وفى الآية صور من التهديد تتابع فى قوة وزجر - فالجزاء جهنم، وللقاتل فيها خلود دائم، وعليه فوق ذلك غضب من الله، وعليه أيضا لعنة الله - وله عذاب عظيم رهيب.

وروى ابن مسعود قال : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» وفى حديث آخر «من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه «آيس من رحمة الله» وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا، وأن هذه الآية هى آخر ما نزل، ولم ينسخها شئ، فلما قيل له : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ثكلته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجىء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره تشخب أوداجه دما من قبل العرش يقول يارب : سل عبدك فيم قتلنى» . وروى معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا» وجريمة العدوان على النفس البشرية لا تحتاج منا إلى أكثر من ذلك.

غير أن هناك صورا من العدوان على هذه النفس هى أبشع من قتل المؤمن عمدا، منها قتل الولد خوفا من العار، أو خوفا من الفقر والإملاق ﴿ **وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت** ﴾ سورة التكوير ٨، ٩ .﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا** ﴾سورة الإسراء ٣١ - ومنها الانتحار - لأن الفكرة الأساسية هى أن الذى يملك هذا الحق هو الله وحده، والإنسان لا يملكه حتى لروحه هو - فروحه من صنع الله، الله وحده هو الذى أعطاه الحياة، والله وحده هو صاحب الحق فى هذه الحياة. وآيات الفرقان التى تتحدث عن عباد الرحمن تؤكد كل ما أشرنا إليه ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨ - فالتعبير (بالنفس) شامل لكل نفس:نفس المؤمن الأجنبى - ونفس الأولاد، ونفس الإنسان - وقوله (حرم الله) تدل على أن هذه النفس حرام على كل مخلوق - أما قوله تعالى (إلا بالحق) فإن حدود هذا الحق واضحة فى نصوص أخرى كثيرة. وهى على كل حال حق للحاكم حتى لا ينتهى أمر المجتمع إلى الفوضى والاضطراب.

هذه هى الصفة السابعة من صفات (عباد الرحمن) صفة فيها إذعان لإرادة الله، واحترام لقانون الله، وتقديس لذاته، وتنفيذ لمشيئته، وفوق ما فيها من تنظيم وتقنين يحفظان للمجتمع كماله وسلامته فهى علاقة بين العبد وربه، من حافظ عليها استحق شرف العبودية ، وكان من (عباد الرحمن).

العفة والصيانة

لقد طال الحديث عن (عباد الرحمن)، وتصوير الصفات التى مدحهم الله بها فى آيات خالدة من سورة الفرقان - ولكن جلال الهدف يجعلنا نستزيد من الحديث عن الرحمن، وعن عباد الرحمن، عسى الله أن يمن علينا بفضله، ويجعلنا من أصفيائه وأحبابه الذين اجتباهم ومنحهم شرف عبوديته.

تقف بنا الآيات عند معنى جديد، وصفة أخرى لهؤلاء العباد عرضتها الآيات فى كلمة موجزة صغيرة حين قالت ﴿**ولا يزنون**﴾ سورة الفرقان آية ٦٨- هذه الصفة المنفية فى التعبير يمكن أن تصبح صفة مثبتة، فعباد الرحمن يتصفون «بالعفة والشرف والصيانة» - والشرف أغلى ما يتمسك به العربى المسلم، وأثمن ما يحرص عليه أتباع محمد والدنيا أمامنا اليوم شاهد عدل على ما يتحلى به المجتمع الإسلامى من تصون ونزاهة وطهارة ، وعلى ما فشا فى المجتمعات الأخرى من انحلال وانحراف وخروج على كل مقومات العفة والكرامة.

الشرف عند المسلم أغلى من كل شئ، أغلى من المال ، وأغلى من الجاه والسلطان، وأغلى من الدم والحياة، - هو كل شئ، وبعده لا شئ - فإن سلم للمسلم سلمت له حياته وعقيدته، وإن ضاع ضاع منه كل شئ.

وتمضى الدنيا كلها فى طريق التفكك والتحلل ، وتتمزق المجتمعات، وتضيع معالم الأسر وروابط الدم بين الآباء والأبناء، والإخوة والأخوات - ويبقى البيت المسلم فى دثار العفة، وستار النزاهة ونقاء الطهارة، وتبقى الروابط المقدسة فى المجتمع الإسلامى لأنها حافظت على ما فرضته الطبيعة من نقاء الدماء وهى تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وصفاء الصلة وهى تجمع الزوج بزوجه، والأخ بأخيه - وإلى الأبد سيكون المجتمع المسلم هو مجتمع الطهارة والعفة ما تمسك المسلمون بدينهم، وعاشوا فى ظلال تعاليمه ، ورحاب مبادئه.

وإذا كان التعبير القرآنى هنا موجزا فإنه لا يقل دلالة فى مفهومه عن غيره من صور التعبير الأخرى التى عنيت بالشرح والتوضيح، ووضعت حدودا ومعالم يجب أن يعيش المسلم فى إطارها. ونكتفى هنا بقول الله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ سورة الإسراء آية ٣٢ - وأول ما نلحظه فى هذه الآية أنها لم تأت على نسق غيرها من الآيات التى سبقتها ، أو التى تلتها للنهى عن الكبائر، فقبلها

قال الله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ سورة الإسراء آية ٢٩ - ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم** ﴾ سورة الإسراء آية ٣١ - وبعدها قال سبحانه : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٣ - ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٦ - ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٧ - وهكذا يأتى النهى عن الكبيرة فى صيغة مألوفة تبدأ بأداة النهى (لا) متبوعة بالفعل المنهى عنه مباشرة ﴿لاتقتلوا - لا تقف - لا تمش﴾ إلا فى جريمتى الزنا وأكل مال اليتم فقد كان النهى عن مجرد الاقتراب من الجريمة لاعن الجريمة نفسها - وهذا أبلغ فى تصوير المراد. وأقوى فى الدلالة على الحرمة - فهو نهى عن الجريمة، وعن الأسباب التى تهيئ لها، والأمور التى تساعد عليها - هو نهى عن كل لون من ألوان التبرج، ونهى عن الاختلاط، ونهى عن التبذل، ونهى عن النظر - نهى عن كل سبب مهيئ، أو أمر مساعد - ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه «الحلال بين والحرم بين، وبينهما مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» - وفى نهاية الآية يأتى التعليل البليغ مبدوء بأداة التأكيد (إن) - وفيه أن هذه الجريمة فاحشة أى ذنب عظيم ساء سبيله وقبح طريقه.

إنه عدوان على الكرامة الإنسانية، واختلاط للأنساب، وانتهاك للحرمات، وانحطاط إلى درك أسفل من الحيوانية والبهيمية.

لقد أراد الله للإنسان أن يكون شريفا، وأن يكون طاهرا، وأن يكون نقيا - فإذا ما انحرف عن طريق الله تجرد من إنسانيته، وأصبح غير جدير ببشريته، وانسلخ عن معنى التكريم الذى أسبغه الله عليه فكان كالأنعام أو أضل سبيلا.

حفظ الله علينا نعمة العفة، وصان لنا ديننا، وجعلنا من عباده - عباد الرحمن ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٨ : ٧١.

وهكذا يفتح الله باب رحمته لمن ضل عن سبيله، فإن تاب وأناب، ورجع إلى ربه، وآمن وعمل العمل الصالح، قبله الله فى رحابه، وجعله من عباده (عباد الرحمن).

عن اللغو معرضون

فهذه صفة جديدة من صفات (عباد الرحمن) نقف عندها وقفة التأمل والتدبر والعظة، لنرى كيف تعددت الصفات وتنوعت، وكيف كونت فى تجمعها وتكاملها شخصية المؤمن الكامل الذى مدحه ربه، ووصفه فى محكم آياته بالفلاح والنجاح.

يقول الله تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٢ - ولقد فهم العلماء الزور هنا على معنيين.

المعنى الأول : أن الزور هو كل باطل فاسد - قيل إنه الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل إنه الكذب والفجور، وقيل إنه مجالس اللهو واللغو، ومجالات الهوى والضلال - الزور كل ماينافى الصدق والحق، وعباد الرحمن ينزهون أنفسهم عن كل باطل، ويرتفعون بها فوق المفاسد، ولا يعيشون إلا فى مجال الصدق، ودين الحق، ويتفق هذا المعنى مع نهاية الآية ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ - لأن سياق التعبير يقتضى تجانسا بين صدر الآية وبين نهايتها - إن الله قد طبعهم على طهارة النفس، وكمال الخلق، فهم يصونون أنفسهم عن الدنس، ويضنون بوقتهم أن يضيع فى حرام، وإذا دفعتهم الظروف إلى مجلس لهو أو فساد مروا سراعا خفافا - روى أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما»، وهذه شهادة تقدير وتكريم من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لابن مسعود، وهى فى ذات الوقت دليل على المعنى المفهوم من الآية - فالذى لا يشهد مجالس الباطل، ولا يحضر نوادى الفساد يكرم نفسه فيصبح كريما - كريما على نفسه، وكريما على الناس، وكريما على الله - والمرء حيث يضع نفسه، ولقد صدق شاعرنا حين قال :

صن النفس، واحملها على ما يزينها تعش سالما، والقول فيك جميل.

ونحن الآن نعيش فى مجتمعات تسربت إليها - تحت شعار المدنية - ألوان الغىّ والفساد، وتعددت فيها - باسم التقدم - مجالات اللغو والباطل - نحن فى زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، زمن كثرت فيه الفتن، وأقبلت كقطع الليل المظلم، يدفع بعضها بعضا، ولا عاصم من هذه الفتن إلا من رحم الله - وما أحوج المؤمن فى هذا الجو إلى أشعة من نور تحفظ على قلبه نبضات الخير فيه، وتسقى روحه بماء الفضيلة - ما أحوج المؤمن إلى دينه، وتعاليم رسوله فى هذا الجو بالذات حتى يظل كما أراد له ربه نقيا طاهرا - والخير كل الخير فى أن يتغلب على المحنة وأن ينجو من

الفتنة، فكلما كثرت المغريات، وتلاطمت أمواج السيئات، وظل هو على طهارته ونقائه - كلما كان على طريق الفلاح - والمثوبة على قدر المشقة، والأجر يعظم كلما عظمت المحنة.

هذا المعنى للآية الكريمة يتفق مع آيات أخرى من كتاب الله، يتفق مع قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين** ﴾ سورة القصص آية ٥٥ - ويتفق مع قوله تعالى فى سورة المؤمنين، مادحا عباده، مسجلا لهم الفوز والفلاح ﴿**قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ سورة المؤمنون ١ : ٣ - وقد أثبتت هذه الآيات أن الإعراض عن اللغو درجة رفيعة تضمن للمؤمن الفلاح، ويكفى أن الله تعالى قرنها بالخشوع فى الصلاة، وقدمها على الزكاة .

إن بعض علماء النفس حين نادوا بما يسمونه الإبدال أو الإعلال، وقصدوا بهما أن يحاول الإنسان تعديل سلوكه وتوجيهه أمام جموح الغرائز، أو محاولة السمو به فوق دوافع هذه الغرائز ظنوا أنهم أتوا بالجديد المعجز، مع أن هذه هى تعاليم الإسلام منذ وجد الإسلام - وهذا لون من ألوان الكمال فى العقيدة بل هوالسمو الروحى، والارتفاع بالنفس البشرية فوق المادية وأدرانها، والإسلام قبل أن يطالب المسلم بطهارة الثوب والبدن طالبه بطهارة النفس والقلب، وبهذا يكون عبدا من عباد الرحمن.

أما المعنى الثانى للآية كما فهم بعض العلماء فهو أن المراد شهادة الزور - الشهادة الكاذبة - التى تغير الحقائق ، وتقلب الباطل حقا والحق باطلا، الشهادة التى تضيع الحقوق، وتقوم على الظلم، وتصدر عن ضمير ميت ووجدان سقيم - وسندهم ما ثبت فى الصحيحين عن أبى بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثا - قلنا بلى يارسول الله - قال «الشرك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال : «ألا وقول الزور - ألا وشهادة الزور» فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت. ونقول : إنه لا مانع أبدا من قبول الرأيين، والنهى عن الجريمتين - فعباد الرحمن جديرون بالأمرين لا يشهدون الزور ، ولا يحبون الكذب، ويترفعون أيضا عن اللغو ومجالسه، والباطل وأحاديثه.

هم أصفياء أنقياء - هم خلصاء أتقياء. هم طاهرون مطهرون - ﴿ **قد أفلح المؤمنون - الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ سورة المؤمنون ١ : ٣.

يزيدهم القرآن إيمانا

وهذه صفة فيها الكثير من الجلال والكمال والجمال والخير - صفة تربطهم بالله، وبكتاب الله، وبآيات الله. وتمنحهم روحانية وقدسية وملائكية - وتعطيهم بشرى بالرضا والقبول.

تمضى آيات الفرقان فى وصف عباد الرحمن فتقول ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - آيات ربهم هى كلام الله الذى أنزله على رسوله ، هى القرآن الكريم الذى جعله الله فرقانا يبين الحق والباطل، وهدى للناس، وبشرى بالخير، وشفاء للصدور ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ سورة الإسراء آية ٩ - ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة** ﴾ سورة الإسراء آية ٨٢ - والناس أمام القرآن أصناف ودرجات :

١ - من الناس من يعُرض عن القرآن، ويتكبر عن سماعه، ويؤثر لهو القول وباطله.. قد ضرب الله على سمعه وبصره وقلبه ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها - كأن فى أذنيه وقرا - فبشره بعذاب أليم** ﴾ سورة لقمان آية ٧ - ويا سوء ما بشر به.

٢ - ومن الناس من يجادلون فى القرآن، ويمارون فى معانيه، ويردون فيه المحكم إلى المتشابه، ويقولون أنه فيه اختلاف كثير - ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾ سورة غافر ٤ - ولو أنهم تدبروا القرآن وحاولوا فهم ألفاظه ومعانيه ، وردوا المتشابه فيه إلى المحكم، لفهموا، وعقلوا، ووصلوا إلى الخير والهداية - فهو كتاب محكم لا اختلاف فيه ولا اضطراب ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ سورة محمد آية ٢٤ - ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ سورة النساء آية ٨٢.

جلس مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على باب من أبوابه - فذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج صلوات الله وسلامه عليه مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول «مهلاً يا قوم - بهذا أهلكت الأمم من قبلكم - باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض - إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا إنما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهذا هو سر الدعوة فى الآيات إلى تدبر القرآن، وبيان ما فيه من إحكام، وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

٣ - ومن الناس منافقون مخادعون، إذا سمعوا آية من آيات الله رجع بعضهم إلى بعض يتساءلون : «أيكم زادته هذه إيمانا» . وهم أبعد الناس عن الإيمان، فى قلوبهم مرض ﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون** ﴾ سورة التوبة آية ١٢٥.

٤ - ومن الناس راسخون فى العلم يقبلون على القرآن بالفهم والتأمل والتدبر - يقولون «اتقاية - كل من عند ربنا» المحكم فيه من عند ربنا، والمتشابه فيه من عند ربنا، وبهذا يردون المتشابه إلى المحكم.. وبهذا اهتدوا، وعرفوا طريق الحق. وكانوا من الفائزين.

٥ - ومن الناس من ملأت الخشية قلوبهم - وتشبعت باليقين نفوسهم - كلما تليت عليهم آية زادتهم خشية ويقينا وإيمانا - ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ سورة الأنفال ٢ - هؤلاء هم المخبتون إلى ربهم. المطمئنون فى رحاب طاعته، والراتعون فى رياض رحمته.

﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ سورة الأنفال ٢ - لأن خشية الله مظهر لتقديسه، وعلامة على حبه وتمجيده ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ سورة النازعات آيات ٤٠، ٤١.

هؤلاء الراسخون فى العلم، وهؤلاء المخبتون إلى ربهم - هم عباد الرحمن - هواهم مع الله، وقلوبهم لله، يقبلون على القرآن إقبال المريض على دوائه ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ سورة الإسراء آية ٨٢.

فالقرآن شفاء ورحمة ولكن للمؤمنين.

والقرآن هدى وبشرى - ولكن يبشر الذين يعملون الصالحات.

والقرآن أحسن الحديث - ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾سورة الزمر آية ٢٣.

هؤلاء هم عباد الرحمن ﴿ **الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - بل هفت لها قلوبهم، وتشربتها أرواحهم، وفاضت من جلالها عبراتهم ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

يرجون من الذرية الصالحة

إن من نعم الله على عبده المؤمن أن يرزقه ذرية صالحة - تحفظ أثره، وتبقى ذكره، وتديم خيره، وتدعو له دعاء مقبولا نافعا بعد أن ينقطع عمله. الذرية الصالحة خير للمرء فى حياته وبعد وفاته : أما فى حياته فهى قرة عينه، وبهجة فؤاده، ومنى نفسه، وقطعة من كبده - يراها فيسعد، ويرعاها فينصب ولكنه يرضى، ويعيش فى حماها وعزها إذا وهن منه العظم، واشتعل شيب رأسه - وأما بعد وفاته فهى الذكرى الباقية، والحبل الموصول، والعمر الممدود، والخير الدائم، والدعاء المقبول عند الله - الأبناء فى الدنيا زينة، وفى الآخرة ذخيرة، وصدق الله : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ سورة الكهف آية ٤٦ - ولا حرمة فى التمتع بالزينة التى أحل الله ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟** ﴾سورة الأعراف آية ٣٢ وصدق رسول الله «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية - أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» لهذا ترى الأتقياء الأنقياء عباد الرحمن يطلبون من الله هذه النعمة، وترى الرحمن يمدحهم ويمجدهم، ويضفى عليهم صفة من صفات الكمال الدينى حين يقول فى آيات الفرقان ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٤ - فى ضوء المعنى الذى قدمناه عن الذرية طلب عبادالرحمن من الله ذرية صالحة تكون لهم قرة أعين - وتطيل بالصالحات أعمارهم - والزوجة الصالحة كالذرية الصالحة نعمة كبرى يرغب فيها المؤمن، ويرجوها من ربه، والرسول الأمين يقول «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة» . ويقول : «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة - إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله» ولقد كانت خديجة أم المؤمنين خير عون للنبى حين تحمل عبء الرسالة، وأقبل على الدنيا يريد إصلاح أمورها، وتطهير عقائدها فلم يكن معه فى بداية الطريق إلا هذه الزوجة الوفية الكريمة - وهى فى هذا نموذج كريم لكل زوجة كريمة.

ولقد تمنى الرسول العظيم الولد الصالح، وسعد سعادته الكبرى يوم بشر بابنه ابراهيم - ولسعادته به اختار له أكرم اسم وأعزه - اسم إبراهيم أبى الأنبياء. وصاحب الملة البيضاء التى اختارها الله لنبيه محمد ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ سورة البقرة آية ١٣٥- ثم كانت فجيعته كبيرة يوم فقد هذا العزيز الصغير، فسال دمعه، وحزن قلبه،

وقال كلمته المؤمنة الصابرة «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولكن لا نقول إلا ما يرضى الله» - وحين مضى وراءه ليودعه إلى مثواه الأخير، كان يتوكأ على صديق، فلما واجه الجبل قال «ياجبل لو كان بك مثل ما بى لهدك، ولكن : إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولقد أحب صلوات الله عليه بناته، أكرمهن غاية الإكرام، وكانت فاطمة عنده ريحانة من ريحان الجنة يشمها فيرضى ويسعد منه القلب، وما كان صلى الله عليه وسلم بدعاً فى ذلك - فقد سبقه الرسل والأنبياء بهذه الرغبة، واتجهوا إلى الله قبله بهذا الرجاء.

فهذا زكريا عليه السلام يطلب من ربه فى ضراعة أن يهب له الذرية الصالحة حتى لا يبقى وحيدا فى حياته بعد أن كبر سنه، ووهن عظمه، وشاب شعره، وأحس عمره يتسرب بين يديه، وأكرمه ربه فحقق رجاءه، وامتن عليه بهذه النعمة وكررها فى القرآن أكثر من مرة فى سورة الأنبياء : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين - فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه** ﴾ - ثم تبين الآيات سر هذه المنة فتقول ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين** ﴾ سورة الأنبياء آيات ٨٩، ٩٠ - وفى سورة مريم ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا - إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا - وإنى خفت الموالي من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا** ﴾ سورة مريم آيات١ : ٦- وفى سورة آل عمران ﴿ **هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء- فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب - أن الله يبشرك بيحيى** ﴾ سورة آل عمران آيات ٣٨، ٣٩ - وإبراهيم عليه السلام حين بشره الله بكلمات منه ، وجعله إماماً للناس ﴿ **قال إنى جاعلك للناس إماما** ﴾ لم يذكر فى هذا الوقت الرائع الخلد إلا ذريته فقال مناجيا ربه ﴿ **ومن ذريتى** ﴾ وجاء الجواب الحكيم ﴿ **لا ينال عهدى الظالمين** ﴾سورة البقرة آية ١٢٤.

وما كان أعظم شكره وحمده لله حين بشره بابنيه على الكبر فقال : ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء** ﴾ سورة إبراهيم آية ٣٩ - ولما طلب من ربه أن يحفظ عليه نعمة الإيمان لم ينس ذريته فقال ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء** ﴾سورة إبراهيم آية ٤٠.

وامرأة عمران لم تجد ما تشكر به الله حين بشرت بالبتول إلا أن تهب لله ما بشرت به ﴿ **رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى** ﴾سورة آل عمران ٣٥.

هكذا كان الأنبياء وهكذا يمضى على طريقهم أحباب الله وعباده - يرجون فى الذرية الصالحة نعمة موصولة وذكرى محبوبة، ودعوة مقبولة، وبقية من العمل الصالح تغذى شعلة الإيمان والنور التى حملوها معهم من الدنيا إلى الآخرة .

رزقنا الله الذرية الصالحة، وجعلها قرة أعيننا، وبهجة أنفسنا، ومتاعا حلالا فى دنيانا - وزادا كريما فى أخرانا - حتى نكون مع عباده الصالحين - عباد الرحمن.

أئمة المتقين

ولقد مضى هذا التصوير الرائع يرينا أحوالهم ، ويصف طبائعهم، ومظاهر سلوكهم فى تتابع محكم انتهى بنا إلى هذا الرجاء الذى رفعوه إلى ربهم فكان خاتمة باهرة لوصف باهر. ونهاية كاملة لوصف كامل، وعلامة صادقة على أنهم بلغوا غاية الإيمان، بل ويسعون إلى أن يحتلوا من هذه الغاية قمة شامخة رفيعة - لقد ختموا رجاءهم الضارع حين ناجوا رب العزة فقالوا ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٤- إذا كان لكل شئ غاية - ولكل أمر نهاية فإن غاية الإيمان ونهاية كماله هى «التقوى».

التقوى التى صورها القرآن أبلغ تصوير فى كثير من آياته - وتحدث عنها مرغبا فيها، وداعيا إليها بما لم يتحدث به عن غيرها - وحسبنا هنا أن نشير فى إيجاز إلى بعض هذه الآيات :

١- فى أول سورة البقرة يتحدث العلى الأعلى عن القرآن الكريم، فيبين أنه هداية للمتقين، ثم يصف هؤلاء المتقين بما هم أهل له من كمال فى العقيدة يدعمه العمل الصالح فى مظهريه : مظهر الصلة بالله فى الصلاة، ومظهر الصلة بالعباد فى المنفعة والزكاة ثم يشير إلى نتيجه ذلك كله وهى النور والفلاح - اقرأوا معى ﴿ **ذلك الكتاب - لا ريب فيه - هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون - أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة البقرة آيات ٢ : ٥.

٢ - وفى سورة آل عمران يتحدث القرآن عنهم فى موضعين، فيصفهم، ويبين ما أعد لهم من جزاء ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله** ﴾ سورة آل عمران آية ١٥ - ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم - وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾سورة آل عمران آية ١٣٣.

٣ - وفى سورة مريم نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ سورة مريم آية ٨٥ - فنرى كيف يبلغ التكريم مداه، وكيف لا ينزلون دار الكرامة إلا وهم

ضيوف على الرحمن - تفتح لهم الأبواب، وتستقبلهم الملائكة، ويدخلون الجنة طيبين طاهرين حامدين ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين - وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده - وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾سورة الزمر آيات ٧٣ ، ٧٤ - نعم يحلون من الجنة حيث يشاءون - وهناك يقال لهم ما قاله الرحمن ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾سورة الزخرف آية ٧٢ - وصدق الله ﴿ **إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾سورة النبأ آيات ٣١ : ٣٥ - بل يمشون فى نعيمها ، ويتمتعون بظلالها ، ويأكلون من طيب ثمارها ﴿ **ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا** ﴾سورة الإنسان آية ٤ .

ولو شئنا أن نتتبع آيات القرآن لنبين عظمة التقوى وقيمتها كغاية كبرى فى العقيدة الإسلامية لطال بنا الحديث، ولكنا نجتزئ بآيات قليلة - نستضئ منها بما يأتى :

﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾سورة الفتح آية ٢٦ - ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾سورة المدثر آية ٥٦ - ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ سورة الأعراف آية ٢٦ - ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** ﴾سورة الحج آية ٣٧ - ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون - لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ سورة الزمر آيات ٣٣، ٣٤ - وتكفى هذه النهاية ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ سورة الزمر آية ٣٤ - فهى جملة شاملة جامعة واسعة الأبعاد، بعيدة الأهداف، عميقة الفكرة - كل مايشاءون لهم - بل لهم وحدهم بمقتضى تقديم الجار والمجرور هنا (لهم) - وهذا وعد صدق وحق - لأنه عند ربهم - عند من لا تضيع عنده الحاجات - فالمشيئة مشيئتهم - والوعد من ربهم ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾سورة النساء آية ٨٧ - ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾سورة التوبة آية ١١١ .

التقوى التى بلغت فى الإسلام هذه المكانة هى غاية عباد الرحمن ، وهى هدفهم ومناهم، ونهاية نجواهم - إنهم لا يطلبون مالا، ولا يطلبون جاها - وإنما يطلبون تقوى الله - أستغفر الله - لقد طلبوا شيئا آخر وراء التقوى - طلبوا ما يمكن أن يراه غيرهم مستحيلا - طلبوا أن يكونوا أئمة للمتقين - يا سبحان الله - إنه ميدان شريف - وفيه يكون التنافس المحمود، والتسابق المشكور - وعباد الرحمن يطلبون الفوز فى هذا الميدان ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ .

هنا يجب أن نتريث لنأخذ درسا - كيف يعيش المتقون - ولأى غاية يعملون، حتى نعرف ضآلة أفكارنا اليوم، ، وتفاهة آمالنا، وهوان مآربنا - وحتى نغير من سلوكنا، ومن أهدافنا، ومن مثلنا، وأن نسارع إلى هذا الميدان لندخل فى عباد الرحمن - وصدق الله ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾سورة الأعراف آية ١٢٨.

وصدق العزيز الحميد ﴿ **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم - لا يمسهم السوء - ولا هم يحزنون** ﴾سورة الزمر آية ٦١.

ألا يشار هنا إلى كلمة إماما وكان سياق الحديث أن تأتى واجعلنا للمتقين أئمة؟ فنقول مثلا جاءت هكذا حتى تؤكد أن صفات الإمام واحدة مهما اختلفت الأزمان والأماكن فإذا كان الإمام ملتزماً بمراداة الله قولا وفعلا فإن جميع الأئمة سيكونون وكأنهم إمام واحد ذات صفات وتصرفات واحدة ومن هنا جاءت الآية بكلمة إماماً لتؤكد ذلك المعنى.

تكامل الصفات وتنوعها

نعود فنسوق لمحات من بلاغة التعبير القرآنى المحكم، ونحاول أن نزيد القول إيضاحا، وأن نجيب عن بعض الأسئلة التى لعلها راودت بعض الخواطر - ونحن هنا نعرض آراء شخصية نسأل الله تعالى أن يوفقنا فى عرضها، وأن يسدد خطانا معها على طريق الصواب، وأن يجعل من شرف القصد أماناً لنا يحفظنا من زلل القول وعثرة اللسان.

١ - أول لمحة عن هذا التعبير «عباد الرحمن» - العبودية هنا تحمل معنى التشريف والتكريم، وعهدنا بها (فى مفهوم الناس) أن تكون صورة للهوان والضعة والاحتقار - كما قال تعالى : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا إتى الرحمن عبدا** ﴾ سورة مريم آية ٩٣ - أى خاضعا ذليلا لا يملك من أمر نفسه شيئا - أما هنا فقد نسبهم الله إلى نفسه، وضمهم إلى رحمته، فأعطاهم أكرم صفات التشريف والتعظيم - وعلى هذا المعنى وردت آيات كثيرة :

فالله سبحانه وتعالى حين شرف محمدا بقربه فى ليلة الإسراء، واختصه بمكان النجوى والقبول، وجعله قاب قوسين أو أدنى - رفعه بذلك فوق العالمين - فلما أراد أن يعبر عن هذا المعنى بما فيه من قرب ونجوى وشرف وكرامة وصف حبيبه بالعبودية فقال ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده** ﴾ سورة الإسراء - فكان قوله (بعبده) أدل على التكريم من قوله «أسرى بنبيه - أو رسوله» وهكذا يجب أن نفهم من القرآن ونتعلم.

والله حين طرد إبليس من رحمته، ورجمه بالغضب على تمرده، ولعنه على عصيانه - أعلنه أن هناك صفوة من خلقه يحميهم من بغيه، ويقيهم عدوانه، ولم يعبر سبحانه عن معنى الحماية والوقاية والإيواء إلا بأن يصفهم بعبوديتهم له فقال ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾سورة الحجر آية ٤٢.

وحين يدعو الله أحبابه إلى القول الحسن يسوق لهم هذا التعبير الرقيق المحبب ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾سورة الإسراء آية ٥٣.

وحين يدعو البائسين إلى رحمته، ويحببهم فى طاعته يناديهم بما هو غاية فى اللطف والعفو والحنو ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ سورة الزمر آية ٥٣ - وحين يقدم بشرى الغفران والاستجابة للسائلين الداعين يقول لعبده محمد ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب** ﴾ سورةالبقرة آية ١٨٦ - وهكذا يعتمد القرآن المعجز هذا النسق التعبيرى الرقيق الرفيق، فيحبب القلوب إلى الله، ويحبب الطاعة إلى الناس، ويضفى على الخلصاء معانى الشرف والكرامة من منطلق العبودية لله.

والله تعالى حين نسب عباده إلى جنابه لم ينسبهم إلى صفة القوة أو العدل أو الغنى فيقول (وعباد القوى أو عباد العادل، أو عباد الغنى) - ولم ينسبهم إلى اسمه الأعظم فيقول (عباد الله) - بل ولم ينسبهم إلى ضمير الذات الإلهية الدال على هذه الذات دون معنى معين فيقول (عبادى) - وإنما نسبهم إلى صفة الرحمة فقال (وعباد الرحمن) - فهى نسبة مقصودة وصفة مرادة، وكفى بذلك دليلا على ما ينتظرهم من رحمة ورعاية بعد ما نالهم من شرف وتكريم.

هذه لمحة أو فكرة تتصل بالآيات - **أما الثانية** فهى أن صفات هؤلاء العباد - سبقت على غير ترتيب مقصود، ولو كان الأمر أمر ترتيب يتصل بمعنى التفضيل لقدمت صفة التوحيد على ما عداها - لكن الله تعالى يترك هذا المعنى فيما نرى لأمرين - والعلم لله وحده :

الأول : أن المؤمن يحتاج لكمال إيمانه- إلى هذه الصفات كلها - المفاضل فيها والمفضول (إن كان هناك مفضول). كل هذه الصفات ضرورية ولازمة، وحتى لا يفهم الناس من الترتيب ما يدفعهم إلى زيادة حرص على الفاضل، وقلة اهتمام بالمفضول سيقت الآيات على هذا النسق - نعم - سيقف بدون ترتيب أو تفضيل حتى تنال كل صفة حظها من عناية العباد وحرصهم - فيحرصون على مشية الكمال والوقار، حرصهم على توحيد الخالق على ما بين الأمرين من تفاوت - وهنا تبرز عظمة القرآن فيما يهدف إليه من مثل وأهداف.

الثانى : أن التعبير القرآنى يحرص على النسق الأسلوبى، أو ما نسميه اليوم تسلسلا وترابطا فى الأسلوب بكل عناصره، يحرص على توازن الفقرات، وتقابل الجمل، وتساوق النغم، وتوافق الكلم، وانسجام الفواصل، وارتباط المقاطع، والقرآن فى هذا قمة من البلاغة جعلته معجزة تفوق قدرة البشر - وهذا الهدف يقصد ويحمد حين لا يضر بفكرة، أو يخل بمعنى، أو يخرج على قاعدة - ويكون مقدما على ترتيب أفكار ترتيبا يعلمه المؤمنون فيما يعلمون من أمور دينهم - فهو ترتيب ثابت فى القلوب، مكين فى الجوانح - معلوم بالضرورة وما أعظم بلاغة القرآن، وما أروع ما يقدمه لنا فى كل عصر من نماذج البلاغة العربية.

تنوع فى الصفات

إن المتأمل فى صفات (عباد الرحمن) يجد تنوعا عجيبا، وعرضا يمزج بين الحسى والمعنوى، ويربط بين صلات ثلاث : صلة العبد بربه - وصلته بالناس - وصلته بنفسه.

أما الصفات التى تصور اتصال العبد بربه فهى على ترتيبها فى الآيات - صفة القيام بالليل والدعاء الضارع لله ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٤، ٦٥ -وصفة التوحيد ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾سورة الفرقان آية ٦٨ - وصفة التذكر والخشية والتأمل لآيات الله ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - وصفة التقوى فى قمتها ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤.

ومع أن هذه الصفات ترجع فى جملتها وتفصيلها إلى توضيح كمال صلتهم بالله تعالى إلا أنها فى نفسها متنوعة أيضا، فهى تتناول أساس العقيدة، وهو أمر وجدانى قلبى ﴿ **لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾سورة الفرقان آية ٦٨ - وتتناول غاية العقيدة، وهى ثمرتها وثمرة العمل بها ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤ - وتتناول ما بين الأساس والغاية من عمل هو الطاعة والعبادة، هو السجود والقيام، وهو البيان فى خشوع وتضرع وقيام لله - وهو الوجل والاتعاظ عند ذكر القرآن وآياته.

أرأيت - أيها الأخ الكريم - إلى هذا القول المحكم - والتنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

أرأيت أننا فى حاجة إلى أن ندرس القرآن، ونقبل على فهمه، ثم تأمله، وتدبر معانيه من جديد؟

الله تعالى يصور صلة عباده به فيعرض علينا صفات فيها بداية العقيدة الإسلامية ، وهى التوحيد - وفيها نهاية العقيدة الإسلامية أو غايتها - وهى تقوى الله - وفيها ما بين البداية والنهاية من عمل متنوع. وسبحانك يارب - ما أروع قرآنك، وما أكمل بيانك، وما أعظم إحسانك على عبيدك حين يفهمون بعض أسرار كتابك.

وأما الصفات التى تصور صلة العباد بغيرهم من الناس فهى أيضا على ترتيب الآيات : المحافظة على كمال المؤمن بين الناس، والإعراض عن مجالات اللهو والهوى ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٣ - وهى احترام النفس البشرية والتصون ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨ - وهى الترفع عن كل باطل أو عن شهادة الزور ﴿ **والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٢ - وهى صفات تتناول العلاقات الاجتماعية فى تنوعها، وتصون على المجتمع الأرواح والدماء والأعراض والكرامة البشرية - صفات تجعل عباد الرحمن فى أكمل صورة، وتدعم فكرة الأخوة الإسلامية التى حرص الإسلام عليها فى كل تعاليمه ومبادئه.

وأما الصفات التى ترجع إلى نفس المؤمن فهى القصد فى الغنى والفقر ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٧ - وهى الرجاء فى ذرية صالحة، وبيت مطمئن بالزوج والولد ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤.

على أننا فى مجال التخصيص هذا لا ننسى أن هناك ترابطا وتكاملا بين هذه الصفات فما يتصل منها بالنفس أو بالعباد يقوى فى الوقت ذاته صلة العبد بربه - وما يتصل منها بالعباد أو بالله يمنح النفس البشرية فى ذاتها وكيانها كمالا - وما يتصل منها بالنفس أو بالله يجعل النفس البشرية، أقدر على التعامل مع الناس - فلا فصل فى الحقيقة بين هذه الصفات إلا فيما يتصل بمجال البحث والتحليل - أما هى فخيوط متشابكة تتناثر فى بدايتها، ثم تتلاقى فى النهاية لتجعل من المؤمن عبدا صادقا فى عبوديته لله، وتمنحه ما فى هذه العبودية من تشريف وتكريم.

وجدير بالباحث المتأمل أن يرى إلى ما فى هذه الصفات من تنوع آخر يجمع الحسى منها والعقلى، ويسوق المجرد إلى جانب المادى الملموس - ويضم الروحى إلى ما يرتبط بالبدن على نحو من الإعجاز فى التصوير لا يمكن أن يكون إلا من وحى العزيز القدير.

ونريد أن نوضح جانبا جديدا فى هذا التنوع - ثم نبين ما فى هذه الصفات من تكامل.

أما التنوع الذى نعنيه هنا فهو التنوع بين الحسى والمعنوى بين صفات تكمل الجسد، وتهذبه، وتحد من نزعاته ورغباته، وصفات تنقى الروح، وتربيها، وتعدها لتحمل رسالتها فى إعداد المسلم الكامل.

ومن كمال الإسلام إنه جمع بين الأمرين، ووازن بين الناحيتين - فلم يغلب إحداهما على الأخرى، ولم يجعل عنايته بواحدة منهما سبيلا إلى إهمال الثانية - ولقد ظن بعض الباحثين أن غاية الأديان هى تربية الأرواح وحسب - وتعالى الله، وتنزهت رسالة محمد عن أن تصاب بهذا التقصير - لأن الصلة بين الجانبين عميقة الجذور، بعيدة الآثار، وكل تهذيب لإحداهما كفيل بأن يزيد الأخرى صقلا وطهرا وكمالا. ومشكلة الإنسانية اليوم هى مشكلة المادة والروح - وسلطان المادة يتسع فيكاد يبرز على مسرح الأحداث، وسلطان الروح يكاد يتوارى أمام حضارة القرن العشرين - ونحن المسلمين ينبغى أن نقف عند حدود رسالتنا، وأن نهتدى بتعاليم ديننا، وأن نحافظ على التوازن بين الأمرين - ولقد بالغت بعض الأديان فى نسيان الجسم ومطالبه ونزعاته ورغباته الفطرية العامة ، واتجهت إلى الروح تغذيها بالطاعة والعبادة فكانت النتيجة هذا الهجوم الذى تتعرض له الأديان من بعض المذاهب الفكرية أو الاجتماعية.

ثم وقعت هذه المذاهب والفلسفات فى نفس الخطأ حين اتجه بعضها إلى الجانب الآخر تماما، ونادى بالفلسفة المادية، وما يتبعها من نسيان للروح، ونسيان للآخرة - وتحليل للتاريخ على ضوء هذه المبادئ مما انتهى به إلى إنكار الأديان - بل وإنكار وجود الله سبحانه - وبهذا وقع فى أخطر ما يقع فيه الفكر البشرى، ودلل على قصور العقل الإنسانى، وعلى ما يصيبه فى أحيان كثيرة من الضلال من حيث يظن الهداية. وهو بهذا يبتعد عن الفطرة البشرية، فالدين فى الوجدان، وتقديس الله سبحانه فى ضمير كل إنسان . ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ سورة لقمان آية ٢٥ .

الإسلام دين الخير كله، دين الصواب كله، دين الصدق كله - دين يجمع بين المادية والروحية، ويعطى كلا حقه. وينظم المنهج السلوكى فى كل من الناحيتين - ثم يزيد على ذلك أنه ينظم العلاقة بينهما على أساس من التعادل والتوازن والتكامل - فكان بذلك أكمل الأديان، وكان بذلك مهيمنا على ما سبقه من رسالات - وصدق الرسول صلوات

الله وسلامه عليه حين نصح أحد الصحابة فقال : «ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر - وتصلى الليل فلا تفعل - فإن لزوجك عليك حقا - ولزورك عليك حقا - ولبدنك عليك حقا - فصم وأفطر - وصل ونم» فى حدود هذا المبدأ كانت صفات عباد الرحمن هى الكمال الجامع بين الروحانية والمادية - فيها طريقة للتعامل مع الناس، وفيها الرغبة فى الولد والزوج على صلاح - وفيها إلى جانب ذلك الخشية من الله ، وقيام الليل حين ينام الناس. وقد تبدو سيادة الجانب الروحى عند تعداد الصفات - لكن ذلك لا ينفى أن الإسلام يعطى كل جانب ما يناسبه، ولقد قلنا إنه يبنى الصلة بينهما على أساس من التعادل والتوازن، وهذا هو سر الكمال.

هذا هو ما قصدنا إليه بالتنوع

أما التكامل فشئ آخر - شئ بعد الكمال، وأعظم من الكمال - التكامل هو اجتماع الصفات على صورة معينة فليس يكفى مجرد اجتماعها فى شخص معين حتى يكون عبدا من عباد الرحمن - ليس يكفى أن يكون المؤمن ذاكراً لربه، قائما ليله صائما نهاره، معرضا علن اللغو، محترما للحقوق وللدماء وللأعراض - إنما يجب بعد ذلك أن تلتقى على هدف معين، ولغاية معينة، فلم تقصد آيات الفرقان إلى أن يتصف عباد الرحمن بهذه الصفات وحسب - وإنما قصدت أن يساند بعضها بعضا، وأن ينمى بعضها بعضاً، وأن تهدف إلى الكمال المطلق - وفى المثال غير إيضاح .

إن وجود المواد الأولية التى تلزم لبناء البيت - لا يكفى لقيام البناء- وإنما يظهر البيت إلى الوجود حين توضع هذه المواد على صورة معينة، وشكل خاص.

والإنسان مكون من لحم وعظم ودم وشعر...إلخ - فهل يكفى مجرد وجود هذه المواد حتى يوجد الإنسان؟ بالطبع لا - وإنما يجب أن توجد على شكل معين، وبنسب معينة، وتتفاعل على أساس مقصود، ولهدف مرسوم، وبهذا يوجد الإنسان - وبهذا اختلفت الأشكال والألوان، فكانت أدل على قدرة الرحيم الرحمن ﴿ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ﴾ سورة الروم آيه ٢٢ - وجلت قدرة الله.

هناك إذن سر وراء تعدد هذه الصفات، ووراء اجتماعها - سر أراده الرحمن ليربى عباد الرحمن ولعلنا نهتدى - ونحن على طريق البحث - إلى هذا السر - وحسبنا اليوم أن نقف على أبوابه.

وصفات «عباد الرحمن» أكثر مما ورد فى هذه الآيات - فالله سبحانه وتعالى لم يرد حصر هذه الصفات، وإنما أراد أن يضرب لنا أمثلة - ودليلنا على ذلك أنهم وصفوا فى آخر

الآيات «بالصبر» ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ سورة الفرقان آية ٧٥ - وأنهم وصفوا من قبل بالتوبة والعمل الصالح المدعم للإيمان ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا﴾سورة الفرقان آية ٧٠.

فعبودية الرحمن شئ أكبر مما نفهمه بعقولنا من هذه الآيات - وعظمة العبودية لمن يقدرها تتجاوز كل الحدود - ورب العزة جلت قدرته جعل العبودية نفسها جزاء الطاعة، وقرنها بالجنة، بل قدمها على الجنة، العبودية غاية النفس المطمئنة - النفس الراضية - النفس المرضية، وصدق العزيز الحكيم ﴿يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى﴾سورة الفجر آيات ٢٧ : ٣٠.

الجزاء

ينتهى بنا الحديث عن «عباد الرحمن» إلى غايته - وها نحن أولاً نصل بعد هذه الجولة الكبرى إلى حيث يجب أن نقف - وأن نسأل : وما النتيجة ؟ وما جزاء هؤلاء العباد عند الرحمن؟

وأقول : سبحانك يارب - قضيت على عبادك - وقضيت على ذاتك - وقضاؤك العدل والحكمة. جعلت لكل عمل غاية، ولكل تعب ثمرة - وسننت مبدأ الثواب والعقاب حتى لا يكون خلق السموات والأرض عبثا - والشجرة الطيبة لا تثمر إلا طيبا ، (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه» وعباد الرحمن جزاؤهم عند الرحمن ، يقصر عن تصويره البيان - جزاء يكافئ عدله، ويوازى فضله، ولا حدود لعدل الله وفضله،

يقول الله تعالى : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها، حسنت مستقرا ومقاما﴾ سورة الفرقان آيات ٧٥ : ٧٦ - وهذا هو ثوابهم، وما أعظمه من ثواب.

جزاؤهم الغرفة هكذا بأداة التعريف (ال) وكأنه لا غرفة تعرف وتذكر إلا هذه الغرفة - وهى الجنة العالية، بكل ما فيها من ألوان النعيم، وبكل ما عرفه المؤمنون عن جناب الله من أوصاف توالت فى كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله العظيم.

ثم انظروا معى - أيها المسلمون - إلى ما فى هاتين الآيتين من صور التعبير القرآنى المعجز: أولئك - اسم إشارة للبعيد، وهم ليسوا بعيدين - لافى الحديث، ولافى منزلتهم من الله - وإنما هو بعد فى المكانة، وعلو فى الدرجة، وارتفاع بها إلى حيث يشار إليهم فى منازلهم العالية السامية فيقال : أولئك وهذا الجزاء يساق لهم من كل مكان، وعلى

كل هيئة، فلا يعرفون من أين يأتى، ولا من يقدمه لهم ولهذا قيل (يجزون) فبنى الفعل للمجهول، ونسب إلى غير معروف تحقيقا لهذه الصورة . وتنبيها لهذه الغاية.

وقد استحقوا ذلك كله بسبب صبرهم - فهى إذن صفة جديدة تذكر لهم حين يقتضى المقام ذكرها - وفى هذا تدليل على ما سبق أن ذكرناه من أن الصفات التى ذكرت لهم ليست هى كل صفاتهم، وأنهم عباد اجتمعت لهم كل صفات الكمال ما عرف منها ومالم يعرف - ماذكر منها وما لم يذكر.

ولقد ادعى بعض المفترين على الدين الإسلامى أنه دين نعيم حسى - وقالوا : إن القرآن يغرى الناس بالجنات، وبالحور العين، وبأنها من خمر وعسل ولبن - فهو دين حس وشهوة - وكذبوا - فالله تعالى حين يذكر هذا النعيم الحسى لا يخرج على طبيعة النفس البشرية التى تتطلب بفطرتها هذا النوع من الجزاء والثواب، ولو كان الأمر أمر جزاء حسى، وشهوة بهيمية لكان الكفار القدامى، ومعهم أرباب الحضارة المادية اليوم هم أسبق الناس إلى هذا الدين طلبا لهذا النعيم الحسى الذى استغرق حياتهم فى الدنيا - وليس أبوجهل مثلا أزهد فى هذه اللذة من عمر بن الخطاب حتى يعرض عنها - وليس ربيب الحضارة الأوروبية أزهد فيها من ربيب الدعوة المحمدية - إنما هو افتراء يهدف إلى مجرد التشويه ولو لم يكن له أساس حتى فى ذهن من يفتريه - ومع ذلك كله - فالنعيم فى القرآن يتناول أشياء أخرى وراء اللذة الحسية- وفى آيات الرحمن هنا يقدم الله تبارك وتعالى ألوانا منه - فهو فى الدنيا يعطيهم التوبة، ويبدل سيئاتهم إلى حسنات، وهذا ليس نعيما حسيا - وهو فى الآخرةيعطيهم نعيم الروح والرضوان ﴿ **ويلقون فيها تحية وسلاما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٥.

إنهم وفد الرحمن - تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب - سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار** ﴾ سورة الرعد ٢٣ -٢٤.

فالله سبحانه وتعالى يوفد ملائكته لا ستقبالهم، وتحيتهم والسلام عليهم حين يفدون عليه فى دار نعيمه، وقد صدقهم ما وعدهم ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ سورة الزمر ٧٣.

فمن النعيم الروحى هذا الاحتفال والاستقبال - ومنه هذه التحية والتسليم - ومنه هذا الطيب والحسن والاستقرار والخلود ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾سورة

الزمر ٧٣. ﴿ **خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٦ - وأى نعيم روحى فوق الطيب والسلام والأمان والخلود؟ ماذا يطلب الإنسان وهو بإنسانيته جسم وروح - ماذا يطلب وراء ذلك : جنة عرضها السموات والأرض، وأزواج مطهرة فيهن الأنس والألفة والمودة وكل معانى التعاطف والتلاقى - وحياة لا مرض فيها ولا هموم، وتحيات وسلامات ، وطيب لقاء وبقاء - وأمان لاخوف فيه ولا بعده، وخلود لا موت وراءه ولا فكر فى موت أو فناء.

هل هناك شىء وراء ذلك؟ نعم هناك النعمة الكبرى - هناك المتعة الروحية، هناك رضا الله ورحمته - وهناك رؤية الله تبارك وتعالى- ورؤية الله سبحانه فى مقامه العلى شئ وراء التصور والتخيل، وفوق البيان والتحدث - ولا نهاية لفضل الله، وتلك عقبى المتقين، وصدق الرسول الأمين ليلة جلس إلى أصحابه وقد اكتمل البدر فى السماء فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر» وصدق الله العظيم ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة - إلى ربها ناظرة** ﴾سورة القيامة آيات ٢٢ : ٢٣.

نسأل الله العلى القدير أن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يجعلنا من عباده المخلصين وممن يحب ويرضى.

وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل

obeikandl.com

مثل المؤمنين

الحمد لله حمداً كثيرا طيبا مباركا كما ينبغى لجلال وجهه ولعظيم سلطانه اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وأشهد أن لا إله إلا الله وهب الإنسان نعمة العقل وخصه بهذا الفضل فآمن به حق الإيمان إلا من فسدت فطرته وكتبت شقوته وحمداً لك اللهم أن هديتنا إلى توحيدك فكنا فى المؤمنين من عبيدك نرجوا ثوابك ونخشى عقابك ونبتغى إليك الوسيلة وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله عليه أزكى الصلاة وأتم السلام فهو نبراس الحق وإمام الخلق وسيد ولد آدم.

أما بعد : فيا أيها المؤمنون :

لقد كرم الله أمة محمد فى كتبه المقدسة، وأثنى على المؤمنين فى التوراة والإنجيل، وجعل حديثهم مثلا يضرب ويروى قبل وجودهم - ثم جاء القرآن الخالد/ فحدثنا عن هذا التكريم، وأعاد الثناء فى صورة حية - تحمل بلاغة اللفظ، وعمق المعنى، وتعرض الفكرة النبيلة فى عبارة نقية بليغة.

وهذان مثلان للمؤمنين من أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه - ذكرهما القرآن الكريم فى سورة الفتح - قال تعالى : ﴿ **محمد رسول الله - والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم - تراهم ركعا سجدا - يبتغون فضلا من الله ورضوانا - سيماهم فى وجوههم من أثر السجود - ذلك مثلهم فى التوراة - ومثلهم فى الإنجيل - كزرع أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ .

ومن روعة القرآن/ أنه قبل أن يذكر المثلين/ قدم حقيقة - هذه الحقيقة هى سر المثلين، وهى سببهما، ولولاها ما كان لأصحاب المثلين وجود- قال تعالى ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ فقرر الأساس. ووضع الحقيقة أمام الأذهان - فإذا كان هناك من فضل يذكر للمؤمنين بعد ذلك / فأصله هو هذه الرسالة، ومنبعه هو محمد الرسول - وهو وصف جميل يبين أنه موضع الاختيار.

ثم عرضت الآية صورة حية لأصحاب محمد فى التوراة، اشتملت على صفاتهم وأحوالهم، وقد بدأ الله الحديث بقوله ﴿ **والذين معه** ﴾ أى مع محمد حتى نفهم من البداية أن محمدا هو المعلم وهو الأستاذ، **وأول صفاتهم** أنهم يجمعون بين أمرين متضادين : الشدة والرحمة - أما **الشدة** فعلى أعدائهم - وأما **الرحمة** فلإخوانهم - وهذه صفة المؤمن : يكون شديدا عنيفا على الكفار، رحيما براً بالأخيار. وقد ورد ذلك فى القرآن، وفى الحديث النبوى .

قال تعالى : ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه - أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين** ﴾ سورة المائدة آية ٥٤ - والذلة هنا هى الرحمة. والعزة هى القوة والمنعة - وقال تعالى داعيا إلى الشدة والغلظة فى معاملة الكفار ﴿ **يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة** ﴾سورة التوبة آية ١٢٣ - وقال صلى الله عليه وسلم فى توضيح حقيقة التراحم والمودة بين المؤمنين «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال صلوات الله وسلامه عليه «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين اصابعه، وإنما كان الصحابة كذلك. اقتداء برسولهم العظيم - وقد كان صلى الله عليه وسلم كما وصفه القرآن ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾سورة التوبة آية ١٢٨.

وعن الحسن رضى الله عنه : «بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس ثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم - وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه».

ونحن لا ندعو إلى ذلك - فإنه مظهر صورى / إنما نرى أن أساس الفكرة هو الحب القلبى، والشعور بمصلحة الأخ المؤمن. والإحساس بما يؤلمه، ومعاونته إذا احتاج، وتهنئته إذا وفق، والفرح لفرحه، والحزن لحزنه، ويمتد الأمر بعد ذلك إلى مجال التعاون العملى والتساند الفعلى.

هذا هو معنى التراحم والتعاون - ليس مجرد مظهر كما نفعل اليوم، إنما هو إيمان قلبى يترجم إلى سلوك عملى.

أما مع الكفار فالأمر مختلف - إن كنا معهم على تهادن ومسالمة، فلا معنى للمشاحنة والمغاضبة، وإن كنا معهم على حرب وقتال، فالأمر إذن أمر حياة أو موت، لا

يكفى فيه تقطيب الوجه كما يرى بعض المفسرين - إنما يحققه فلسفة القوة والشدة والعنف.

وما أحوجنا اليوم إلى ذلك، ما أحوجنا إلى أن نقف من أعدائنا موقف القوة والعنف حتى يتحقق فينا قول الله ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

وهذه صفات أخرى لهم فى إطار هذا المثل من صفات المؤمنين/ ما حكاه القرآن الكريم حين قال : ﴿ **تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

والركوع والسجود مظهران عمليان يعبر بهما دائما عن الصلاة، وذلك لأن الركوع والسجود أبرز أركان الصلاة - فيهما حركة جسمية، وفيهما زيادة فى الصلة الروحية بالله - وقد قال صلوات الله وسلامه عليه «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» - وفى الركوع والسجود أيضا معنى الخضوع والذلة لله - والخضوع أقوى معالم الطاعة، وليس مع الله ذلة، وليس فى الخضوع له دلالة معيبة - إنما هو الضعف البشرى يرتفع ليقترب من القوة الإلهية - فإذا ما التقى المظهران، مظهر الخضوع الكامل من العبد، ومظهر الجلال الخالص من الرب - كان ما يرجوه الضعيف - وهو القبول والرضا من الله.

والآية الكريمة حين تقول ﴿ **ركعا سجدا** ﴾ تختار لفظين يعبِّران عن كثرة الركوع والسجود فهم فى عبادة دائمة، وهذه العبادة المتصلة ذات غاية واحدة هى طلب الفضل والرضوان من الله، فالعبادة إذن خالصة لله، صادقة فى الاتجاه إليه - وانتظار المثوبة من الله أمر لا ينقص من طاعة المؤمن وإخلاصه - وقوله تعالى ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ - يوضح حقيقة أخرى، هى أن ما يمنحه الله لعباده نظير طاعتهم وعبادتهم/ إنما هو فضل منه وكرم. والرضوان أعظم درجة من الفضل - قال تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾سورة التوبة آية ٧٢.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾سورة الفتح آية ٢٩.

سيماهم أى علامتهم - وقد فهم الناس علامة الإيمان فى الوجه على معنيين :

الأول : أنها هذه النكتة السوداء التى تظهر فى الجبهة من أثر السجود، وتعمد بعض الناس أن يزيد هذه النكتة ظهورا وبروزا - وهذا مظهر خادع ، فإن زاد على المألوف

كان صورة من صور النفاق : تعيب الوجه، وتذهب عنه البهاء والجمال - وقد رأى ابن عمر رضى الله عنه رجلا قد أثر فى وجهه السجود - فقال له : «لا تشن صورتك».

والمعنى الثانى : أنها السمت الحسن - قال مجاهد : «إنه ليس بالذى ترون - ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه - ليس بندب التراب فى الوجه، ولكنه الخشوع والوقار والتواضع».

ولا شك أن العبادة الصادقة تنير الوجه، وتكسبه جمالا وبهاء ووضاءة وملاحة، هى ملاحة الإيمان والاطمئنان والرضا والثقة بالله - ولقد قال بعض السلف : «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» - وقال بعضهم : «إن للحسنة نورا فى القلب - وضياء فى الوجه - وسعة فى الرزق - ومحبة فى قلوب الناس» - وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه» وروى الإمام أحمد عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح- والاقتصاد - جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة».

وقد رأى بعض المفسرين أن علامة الإيمان فى الوجه كما تكون فى الدنيا تكون فى الآخرة، ويوم القيامة ترى المؤمنين وقد أضاءت وجوههم - وأشرقت بنور ربهم - قال ابن عباس رضى الله عنهما : «صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة».

والمؤمنون يبعثون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الطهور.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن أمتى يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء».

يا أخى المسلم :

هذه جوانب الصورة التى قدمها المثل - قال تعالى بعد أن ذكر هذه الصفات : ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

أى هذا هو المثل الذى ذكرته التوراة للمؤمنين من أتباع محمد صلوات الله وسلامه عليه وما أروعه من مثل، ومثلهم فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه - فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾سورة الفتح آية ٢٩ - لهذا المثل جانبان - وفيه صورتان متقابلتان.

صورة المؤمنين مع رسولهم العظيم - وصورة الزرع حين يبدأ صغيرا، ثم ينمو ويستوى عوده. ونوضح الصورتين فنقول :

أما صورة الزرع فمألوفة لنا، وهى صورة محسوسة، تراها العين، ويتابعها الذهن، هذا الزرع يبدأ صغيرا ، ثم ينمو ويكبر، والشجرة الكبيرة تكون أمًا لأشجار صغيرة تنبت حولها وهى ما عبر عنه القرآن بالشطء - الشطء للزرع هو فراخه الصغيرة - يقال : أشطأ الزرع إذا أفرخ، وخرجت حوله أشجار صغيرة تبدو حول الشجرة الكبيرة كأنها فراخ الطير حول الأم. ونحن نرى النخلة الكبيرة، وقد تناثرت حولها نخلات صغيرة تعيش فى حماية الأم، ثم تكبر هذه الفراخ الصغيرة من الزرع، وتغلظ ، ويزداد حجمها، ثم تستوى على سوقها وتتكون مجموعة من الأشجار الوارفة الظلال حول الشجرة الكبيرة أو الشجرة الأم.

وأما صورة المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم فهى مثل هذه الصورة.

أصل الزرع هو محمد - هو الشجرة الكبيرة، هو الشجرة الأم، فى حماها وظلالها وعلى غذائها نبتت فراخ أخرى. نشأ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ونشأ غيرهم من أجلاء الصحابة فكانوا حول الرسول كما تكون النخلات الصغيرة حول النخلة الكبيرة - ثم قوى إيمان هؤلاء الرجال، وازداد يقينهم، فآزروا محمدا صلى الله عليه وسلم فى دعوته - عاونوه وساندوه حتى أصبح الإسلام قوة عظيمة تتألف من هذه الجماعة : محمد وأصحابه المخلصين قال ابن كثير : «فكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع».

أما قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ - فمعناه أن هذا الزرع الإسلامى نما وأثمر - وآتى أكله شهيا، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين التفوا حوله صاروا مثلا يضرب للناس فى إخلاصهم ويقينهم وتآلفهم وحبهم للرسول .

قال صلى الله عليه وسلم : «أصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتاهم ما يوعدون» أى جاءتهم الفتن ونزلت بهم المحن، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

على مدى التاريخ منذ ذهب أصحابه إلى اليوم. ولو كان بيننا الآن أمثال أبى بكر وعمر ما صرنا إلى ما نحن فيه من هوان وضعف.

وقال صلى الله عليه وسلم : «لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

وبعد :

فقد عقب القرآن على هذين المثلين بقوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

ولنا عن هذا التعقيب كلمتان :

الأولى : تتعلق بكلمة (من) فى قوله : ﴿ **وعملوا الصالحات منهم** ﴾ - ومعناها أن الله قد وعد من أقام منهم على الإيمان، وظل عليه وعلى العمل الصالح -

أو معناها - أن الله قد وعد الذين آمنوا من هذا الجنس الصالح - فهى لبيان الجنس، أى جنس الصحابة الأخيار.

والكلمة الثانية عن قوله : ﴿ **مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

ففى هذا القول بيان للنتيجة وللأجر - النتيجة هى المغفرة - والأجر هو الثواب العظيم والرزق الكريم.

وهذا وعد من الله - وعهد أخذه على نفسه

ووعد الله حق وصدق - ومن أوفى بعهده من الله؟ إن الله لا يخلف الميعاد.

نسأله سبحانه أن يستعملنا فى طاعته وأن يثبتنا عليها وهو الموفق والمعين.

صفات المؤمنين

الحمد لله كاشف البلاء باسط الأرض ورافع السماء خالق الخلق واختار منهم أصفياء يحبهم ويحبونه فباعد بينهم وبين أعمال الأشقياء فتقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم يوم اللقاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد ... فيا أيها المسلمون

فلقد كثر ذكر المؤمنين فى كتاب الله تعالى، وفى حديث رسوله الأمين - وترددت هذه الكلمة على ألسنة بعض الناس فى صور تدل على أن معناها غير واضح فى الأذهان - والإيمان فى اللغة هو التصديق، فأنت مؤمن بالشئ حين تصدق به ، وأنت مؤمن بالله ورسوله حين تصدق بهما - وهكذا غير أن الإيمان فى مدلوله الدينى يحتاج إلى صفات كثيرة حتى يكون إيمانا كاملا قاله الله تعالى رداً على بعض الأعراب ﴿**قل لم تؤمنوا - ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم**﴾سورة الحجرات آية ١٤.

المؤمن الحقيقى هو الذى يصدق بقلبه تصديقا جازما بكثير من الأمور بحيث يحمله هذا التصديق على سلوك معين هادف - وفى حديث شريف رواه عمر بن الخطاب توضيح لدرجة عالية من الإيمان - قال عمر : «بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه فينا أحد» ويمضى عمر فى حديثه حتى يروى : قال أى الرجل يسأل الرسول : «فأخبرنى عن الإيمان - قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». ففى هذا الحديث تحديد لأصول الإيمان وأسسه، ومصداقه قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله**﴾سورة البقرة آية ٢٨٥.

لكن الإيمان لا يقف عند حدود، وإنه ليزيد ويزيد حتى يرجح إيمان فرد واحد إيمان الأمة كلها، ولا يتحقق ذلك إلا بصفات كثيرة - كلها أثر من آثار العقيدة الصادقة -

ونستطيع أن نجد هذه الصفات فى الآيات التالية :

﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا . وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون- تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ سورة السجدة آيات ١٥، ١٦ - فهم عباد مخلصون، قد شفت نفوسهم ، ورقت طباعهم ، وملأت الخشية قلوبهم، وانصرفوا إلى بارئهم عن كل شئ.

صفتهم الأولى أنهم إذا ذكروا بآيات الله ودلائل قدرته، خروا لها ساجدين، واستمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا. تقشعر جلودهم إذا سمعوا كتاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

وصفتهم الثانية أنهم يسبحون بحمد الله، ويتكرر تسبيحهم فى كل وقت وفى كل مكان فالله يقول : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ سورة الأعلى ١ - ويقول : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ سورة ق آيات ٣٩ : ٤٠ - ويقول : ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمده** ﴾ سورة الإسراء آية ٤٤ - فلماذا لا يسارعون هم إلى التسبيح تنزيها لله وتقديسا، واعترافا بجلاله وعظمته.

وثالث صفاتهم أنهم يتركون النوم، ويقومون الليل ، يدعون الله خوفا من عذابه، وطمعا فى ثوابه - يعبدونه لا يشركون به شيئا والناس فى الليل واحد من ثلاثة : غارق فى لذيذ النوم - وعابث يرتكب الفسوق وراء ستار من ظلام - وعابد يضنيه السهر ويتعبه الرجاء. عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه - إلى صلاته. رغبة فيما عندى. وشفقه مما عندى - ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار، وماله فى الرجوع فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى - فيقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدى : رجع رغبة فيما عندى ورهبة مما عندى حتى أهريق دمه».

ورابع صفاتهم، أنهم ينفقون مما رزقهم الله، فيجمعون بذلك بين مختلف المقربات، يرضون الله بذكره وطاعته، ويرضون عباده بالصدقات.

وهذه الصفات تعطى إيمانهم درجة الكمال - ولقد روى معاذ بن جبل قال : «كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يانبى الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار، قال : لقد سألت عن عظيم،

وإنه ليسير على من يسره الله - تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة - والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل فى جوف الليل - ثم قرأ ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ سورة السجدة آية ١٦ - حتى بلغ ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ سورة السجدة آية ١٧ - وما رويناه هنا من الحديث يوضح أولا أسس الإيمان الضرورية، ثم يتحدث عن صفات الكمال فى المؤمنين ويدلل عليها بالآية القرآنية الكريمة.

وفى نهاية الآيات يأتى الجزاء، وقد أجملته الآيات فى صورة لا يتصورها عقل بشرى محدود ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ سورة السجدة آية ١٧ - وهو جزاء فوق التصور البشرى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة عنه : «يقول الله تعالى : (**أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**) ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ سورة السجدة آية ١٧.

اللهم أكمل علينا إيماننا وامنحنا من فضلك بعض صفات عبادك المؤمنين.

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الفردية فى مجتمعنا

الحمد لله رب العالمين ولى الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وحجة الله على الناس أجمعين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

عباد الله..

لعّل من الظواهر الغريبة التى تستحق الدراسة .. ما يتميز به مجتمعنا من ميل إلى الفردية، وابتعاد عن روح الجماعة - فالرجل الشرقى بصفة عامة لا يؤمن بقيمة الأخلاق الاجتماعية، أو على الأقل لا يتخذها منهجا له فى حياته عندما يتعامل مع غيره من الناس.

قد يصل الإنسان الشرقى إلى درجة رفيعة من المثل الأخلاقية الفردية : فيكون صادقاً، شريفا، عفيفا، ويكون مجُدّا، مثابرا، محبا للعمل - لكنه يبقى فى الكثير من أحواله قليل التعاون مع غيره، بعيدا عن المشاركة بإيجابية فى أحداث مجتمعه، ويقف فى سلبية موقف المتفرج من كل حدث خطير لا يمَسُّ كيانه هو أو أسرته.

وعلماء الأخلاق يقسمونها إلى قسمين - أخلاق فردية كالأمانة والصدق والشرف - وأخلاق اجتماعية كالتعاون، والتكافل، وأداء الواجب ، والتضحية.

أما الأخلاق الفردية فتدور فى فلك الذات، تتصل بمصلحة الفرد، وتهدف إلى منفعته وحده، وإذا كانت فى النهاية تعود على المجتمع بالخير والمنفعة - لأن المجتمع أفراد - إلا أن الرجل الفردى لا يتمسك بهذه الأخلاق إلا من وجهة نظره هو، وإلا لأنها تعود عليه وحده بالمنفعة - أما ما وراء ذلك من فائدة للمجتمع فغير داخل فى تقديره، ولهذا فهو غير داخل فى اعتبار الباحثين والمصلحين.

وأما الأخلاق الاجتماعية فتهدف أولاً إلى خير الجماعة، تبدأ منها، ثم تنعكس على الفرد، ولهذا نسميها أخلاقا اجتماعية، وتسمى الأولى أخلاقا فردية، وإن كان فى كلا النوعين فائدة للفرد وللجماعة.

ظاهرة الفردية فى مجتمعنا تستحق الدراسة، وبخاصة فى هذا المجتمع الإسلامى - ذلك أن الإسلام أعطى «فكرة الجماعة» عناية خاصة. والدعوة إليها فى القرآن الكريم والسنة المحمدية قوية واضحة صريحة - فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ - ويقول : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٣ - ويقول : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ سورة الحجرات آية ١٠ - والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» - وأول عمل قام به صلوات الله وسلامه عليه بعد الهجرة هو المؤاخاة بين أبناء المجتمع الجديد، وتنمية روح الجماعة والأخوة بين المسلمين، وتكوين مفاهيم صادقة للوحدة والتماسك والترابط - والمسلمون الأولون كانوا نماذج صادقة لهذه المفاهيم على الرغم من اختلاف بيئاتهم وأجناسهم، والذى كوّن هذا المجتمع السليم من الرومى والحبشى والفارسى والعربى إنما هو الإسلام - لقد رباهم محمد صلى الله عليه وسلم فى مدرسة النبوة تربية اجتماعية جعلت منهم صورة كاملة للمجتمع الكامل - لقد تغلبت رابطة الأخوة والعقيدة بينهم على غيرها حتى على رابطة الدم، وهل سمعنا فى غير المجتمع الإسلامى أن رجلاً ترمى به أحداث الحياة إلى بيئة غريبة منذ طفولته، يعيش فيها عبدا ذليلا ثم يجد الخلاص فى إطار هذا المجتمع الجديد - حتى إذا عثر عليه أهله، وعثر عليهم أبى أن يترك أخوة الإسلام، وفضل البقاء مع محمد على الرحيل مع الأهل والعشيرة!!

لماذا إذن يعيش المسلم اليوم فى دنياه الخاصة، ولا يكاد يشارك فى أحداث مجتمعه إلا فى القليل النادر؟

لماذا ينمو فيتكوّن منه الفرد الكامل فى ذاتيته ولا يتكون منه الفرد المكمّل لجماعته؟ لماذا نبقى مطبوعين على حب الذات، وإيثار النفس، وقد كان المسلمون الأولون يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟

أسئلة تثير فى النفس كوامن الألم، وتجعلنا نبحث عن الجواب.

بعض الباحثين يرجعون ذلك إلى ما يسمونه «بالطفولة الاجتماعية» أو «المراهقة

الأخلاقية» - يقولون : «إن المجتمع الذى تتغلب على أبنائه الصفات الفردية يكون مجتمعا فى طفولته مجتمعا غير ناضج - ويقولون : إن الطفل الصغير شديد الشعور بذاته - بل هو لا يكاد يدرك في الوجود غير ذاته، ثم يبدأ فيتعرف إلى والديه وأهله وعشيرته- ثم تنمو مداركه وتتسع دائرة معارفه، ولكنها كلها تتكون من خلال ذاته، ورغبات هذه الذات - ولا يتكامل وعيه الاجتماعى إلا بعد أن يصبح رجلا كامل التفكير، وبمقدار ثقافته يكون تقديره لمشاعر غيره، ومشاركته لأبناء مجتمعه فى آلامهم وآمالهم حتى ولو تعارضت مع ذاتيته ومشاعره.

وهكذا المجتمع - يبدأ فى طفولة، ثم يندرج فى مراحل التكون والترابط والتماسك وتبادل المنافع، ثم يكون التعاون الصادق، ثم يصل إلى أعلى الكمال الاجتماعى بالفداء والتضحية والإيثار.

وقد يكون هذا التحليل صحيحا فى مجتمعات أخرى غير مجتمعنا الإسلامى إذ كيف نقول عنه إنه مجتمع غير ناضج الآن وقد كان فى كمال نضجه منذ أربعة عشر قرناً؟

الحقيقة المرة أن هذا المجتمع قد ضلت به الطريق، وأثرت عليه مؤثرات أخرى أبرزها الاستعمار - لقد أصيب المجتمع الإسلامى بمحنة الاستعمار فكانت من أقوى عوامل ضعفه، وابتعاده عن مثله. وقد يظن بعضنا أن الاستعمار يكتفى بالسيطرة السياسية، أو المنفعة الاقتصادية - ولكن الواقع أن الاستعمار مرض يصيب المجتمعات فى داخلها - يخرب عقائدها، ويغير مثلهَا، ويدمّر ما فيها من عوامل القوة والنمو الذاتى. يفعل ذلك حتى يضمن لنفسه البقاء.

إن الفرد فى المجتمع المستعمر يشعر بالخوف على نفسه - وعلى أسرته - فيدفعه هذا الخوف إلى الانكماش والابتعاد - يدفعه إلى الرغبة فى المحافظة فى ذاته فحسب - أعنى يدفعه إلى الفردية.

وأمتنا العربية المسلمة تخوض اليوم غمار معركة رهيبة مع الاستعمار، وهى لا تهدف من وراء هذه المعركة إلى طرد المستعمرين وتطهير الأرض فحسب، بل تهدف - ومن خلال المعركة - إلى تكوين مُثلها. ومبادئها القويمة.

إن المعركة واسعة الميادين - متعددة الجوانب - وإنّها لتصهر كل فرد فينا بنيرانها - وإنها لتربينا تربية جديدة أرأيتم إلى أبناء هذه الأمة اليوم يتسابقون إلى الموت، ويتدافعون إلى الشهادة.

لقد عادت لهم روح آبائهم - لقد ظلت بذور الخير والفضيلة حية فى ضمير هذا المجتمع الإسلامى، وإنها لُتنبت اليوم أشجارا مورقة - لقد رواها على الزمن نبع التعاليم الإسلامية، وتُرويها اليوم دماء هؤلاء الشهداء وسيخرج المجتمع الإسلامى من المحنة متماسكا متعاونا كما أراد له الإسلام. وكما يجب أن يكون.

والحمد لله رب العالمين.

obeikandl.com

حزب الله

الحمد لله رب العالمين .. يارب .. ياستار العيوب استر عيوبنا ويا غفار الذنوب اغفر ذنوبنا ويا مفرج الكروب فرج كروبنا وقنا شر ما أهمنا وغمنا..

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

أما بعد..

الإسلام دين الوحدة والأُلفة - لا تفريق فيه بين طائفة وطائفة، ولا تفضيل لجماعة على جماعة، والحزبية فيه بغيضة ممقوتة، لأنها تدعو إلى العصبية والفرقة، وتسبب الخذلان والضعف - لكنا نقرأ فى كتاب الله قوله تعالى : ﴿ **أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ سورة المجادلة آية ٢٢ - فما معنى ذلك؟

معناه - أن الله اختصّ جماعةً من الناس فجعلهم حزباً له، ومنحهم الفلاح والنجاح. وليس فى ذلك عصبيةٌ ولا تفرقة - لأن هؤلاء القوم تميزوا بصفات خاصة، وكانوا أهلاً لرضوان الله، فجعلهم أهل كرامته، وأعطاهم شرف الانتساب إليه - فالتعبير هنا تشريف لهم وتكريم،هو كقوله تعالى ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٣ - وكقوله تعالى ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ سورة يونس آية ٦٢ - فحزب الله هم عباده المخلصون، وهم أولياؤه الذين اصطفاهم وكرّمهم، وأذهب عنهم الخوف والحزَن. وفى ذلك دعوة للناس جميعا، وترغيب لهم فى أن يكونوا من حزب الله، ومن أولياء الله، ليتحقق لهم الفلاح والفوز.

ولكن ليس من اليسير أن تكون واحدا من هذا الحزب - هناك شروط كثيرة ذكر الله بعضَها فى أول الآية فقال : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾سورة المجادلة آية ٢٢ - فى الآية شرطان لابد منهما حتى تكون واحدا من أولياء الله، وحتى تستحق شرف الانضمام إلى حزبه وعباده.

الشـرط الأول - الإيمان بالله وباليوم الآخر - والإيمان ليس كلمة تقال، إنهُ تصديق بالقلب، وتنفيذ بالجوارح، ليس لفظا ينطق به، ولا أمنية نتمناها - إنه يقين وعمل - وصدق رسول الله **(ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن ناسا قالوا نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل)**.

الشـرط الثانى - ألا يكون بينك وبين أعداء الله مودة، لا نتخذ من الكفار أولياء، ولا أصدقاء، بل يجب أن يكون ودك وحبك وإخلاصك كله لله ولرسوله وللمؤمنين - وإذا كان أهلك كفارا فابتعد عنهم، ولا تعطهم المودة، إذا خيرت بين الله وبين أهلك وعشيرتك فاختر الله سبحانه، ولا تعاد المؤمنين فى سبيل إرضاء الكافرين، ولا تكن عونًا لأعداء الدين على أبناء الدين، قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء** ﴾ سورة آل عمران آية ٢٨ - وقال تعالى ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره - والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ سورة التوبة آية ٢٤.

فإذا ما تحققت الشروط، وصرتَ من حزب الله كان جزاؤك عند الله عظيما، اقرأ معى بقية الآية : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ سورة المجادلة آية ٢٢.

اقرأ الآية وتأمل : الثواب ليس شيئا واحدا، بل هو ألوان متعددة، فيه تأييد بروح الله ورعايته وفيه جنات تجرى من تحتها الأنهار وفيه خلود فى هذه الجنات، وفيه رضوان من الله تعالى استحقوه حين سخطوا على أقاربهم فى سبيل الله، وفيه فلاح ونجاح فى الدنيا - وفيه بعد ذلك انتساب إلى الله تعالى، فهم أهل كرامته وهم عباده المخلصون، وهم أولياؤه وأحبابه - وليس بعد ذلك جزاء أو ثواب.

والله الموفق والمعين.